أزهى أيام العمر

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٣٥٩/ ٤/ ٢٠١٢)

شنك، موسى فهد
أزهي أيام العمر/ موسى فهد شنك_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
(٢٢٤) ص
ر.أ: (١٣٥٩/ ٤/ ٢٠١٢).

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@hotmail.com
www.almamoun-jo.com

أزهى أيام العمر

موسى فهد شنّك



كان ينتظر يوم التخرج بفارغ الصبر

ليقتحم البيت بحصانه الأبيض

ويردفني خلفه كي نبدأ أياماً هي

أزهى أيام العمر

٥

تقديم

د. زياد أبو لبن

تقوم رواية " أزهى أيام العمر " للكاتب موسى فهد شنك على شخصية واحدة ألا وهي شخصية الراوي، وهي شخصية فتاة جامعية، إذا تروي أحداث الرواية جميعها بلسان (التأنيث) في فكرة بسيطة في عمومها وعميقة في خصوصيتها، تلك الفتاة التي تُدفع للزواج دفعاً في سن مبكرة من قبل أمها بعد أن توفي أبيها، ولكن طموحات الفتاة تتجاوز الواقع التقليدي، فتتمرد عليه وترفض زواجها المبكر، وتواصل تعليمها الجامعي لتتخرج طبيبة، ويُعجب بها أُستاذها في الكلية، بل يتعلق بحبٍّ لا يُكشف عنه، وفي نهاية الرواية يُفضي الحب إلى زواج ، فتبدأ صفحات جديدة في حياة الفتاة هي (أزهى أيام العمر)، في حين تتعلق الفتاة بحب حسام زميلها في الجامعة، الذي اتخذ من الإنطواء على نفسه سبيلاً في مواجهة العالم، رغم أنه طالب

مميز في كلية الطب، ولكن الفقر قد عصف بحياتــه منــذ الصغر، وشكل لديه عقدة النقص .

تتحرك شخصية (الراوي) في اتجاه واحــد، وفــي تفاصيل صغيرة محمّلة بالايحــاءات النفســية والجســدية والروحية، لشق رحلة الحياة ما بين الحلم والحقيقة، ما بين التمرد والخضوع، ما بين القوة والضعف، كل تلك الثنائيات تجدها في صفحات الرواية، وقليلة هي الصــفحات التــي تنطوي على حوار مباشر بين (الفتاة) الــراوي وحســام زميلها في الكلية، أما صفحات الرواية جميعها تحمل لغــة سردية قادرة على بناء عمل فني متماسك، حيــث يحــاول الكاتب أن يجعل من القــارئ شخصــية مــن شخصــيات الرواية، حيت يتوجه الحديث مــع القــارئ مــن خــلال الشخصية الرئسية (الراوي) ، وذلك عن طريــق التفكيــر بمجريات الأحداث، وهي تقول:

" وفجأة توقفت قدماي امام مكتبه، عفــواً، لا أريــد أن تذهب أفكارك ونواياك أيها القارئ العزيز، إلى مدى الشك

والريبة، بل أحب أن تكون الثقة بيننا قائمـة علـى الـود والصراح، ومن أجل ذلك أخبرك بأنني ذهبت إلى مكتـب الدكتور بسام ... " ص ١٢٩. وفي موضـع آخـر تقـول الشخصية الراوية : " لن أجعلك يا صديقي القـارئ تفكـر كثيراً بهذه المحطة، ولن أُتيح لك فرصة تسـرح بخيالـك بعيداً، وتظن بين الظنون، فيتعكـر صـفوك فتحـزن، أو يصيبك شيء من الإحباط بسببي، وقد ألف كل منا صـاحبه منذ بداية هذه الرحلة، بل تعال معي كـي نتعـرف علـى صاحب هذه المحطة، إنه بلا مقدمات، الدكتور بسام، فأنت تذكره، وما أظنك قد نسيت دعوته لي أول مرة في مكتبـه، ...." ص٢٢١.

كتبت الرواية بلغة سردية مباشر، لغة تحتمل تفاصـيل هائلة من خلال مونولوجات متعدده، تكشف عـن جوانـب مظلمة من النفس البشرية، فالكاتب وظّف في روايته خبراته الحياتية في شخصية السارد (المؤنث) توظيفـاً محكمـاً، خاصة أن تلك الشخصية المؤنثة لا تكشـف أسـرارها إلا كاتبة وليس كاتب، ولو لا اسم الكاتب (موسى) على غلاف

الرواية، وهو الاسم الذي ليس فيه لبس للتأنيث والتـــذكير، لقلت أن صاحب الرواية كاتبة بامتياز، ولكن الكاتب تقمص شخصية فتاة لا تتجاوز العشرين من عمرها، ووظّف هـــذه الشخصية توظيفاً متقنـــاً، وهـــذه ميـــزة تســـجّل للروايـــة ولصاحبها، إلى جانب المميزات التي ذكرتها، فما أن تبـــدأ في قراءة الرواية حتى تتكشف أمامك عوالم أنثوية في غاية الجمال.

يبقى ألقول أن الكاتب قدم عملاً سردياً ينحاز في بنائه للرواية النسوية، وقد استخدم تقنيات حديثة من خللا الســـرد في القطع الســـينمائي، والتقـــديم والتـــأخير، والتـــأملات، والتفاصيل الصغيرة، وغيرها، وقد أحسن في صنع روايـــة تمتلك مقومات الرواية الحديثة .

تقديم

كم كان بودي أن أدفع إليك هذه الصفحات دون "تقديم"

ألا أنه عزّ على أن لا يكون من بداية أتحدص فيها إلى القارئ العزيز، حديثاً أشبه ما يكون بتحية ود وتعارف، لأن هذه السطور ثمة جهود جمة، كانت بالنسبة لي نفحة أمل زادتني إيماناً رغم العقبات التي اعترضت سبيلها .

فكم ألقيت بهذه السطور في غياهب الأدراج زمناً طويلاً فعلاها الغبار وكاد الزمان يعفو عليها . إلا أنني كلما عدت أليها، وجدتها باقية تحتل أجمل موقع في القلب ويحتفظ الصدر بها في أعز مكان ... فأعود إليها يدفعني الشوق وتجتاح فرادي الرغبة كطفل شقّ عليه فراق أبويه .

إن طريق الحياة صعب وشاق، تملؤه الأشواك، وتكتنفه العقبات، وكلنا يسير في مثل هذا الطريق،

طريق الحياة والأمل ... نذلل العقبات ونقتلع الأشواك، والأشواك والعقبات تأبيان إلا أن تتمتعان بشرخ عظمتيهما لتقضيان على أمل أصحاب النفوس الضعيفة، وتحطمان حياتهم وتملآها عليهم بؤساً وشقاء .

لذا رأيتني ايها القارئ العزيز، يدفعني الشوك للكتابة إليك لأن هذه القصة مرت في مثل هذا الطريق.

المقدمة

ويمضي قطار الزمن، سريعاً أو بطيئاً فالأمر سيان، فما حزنت لأيام مضت، بل فرحت لأيام تطل يفوح من ثناياها الأمل، طال عمرها أم قصر . لأن حساب الزمن شيء نسبي، ليس من السهل تثمينه أو معرفة الأهمية التي تكمن في لحظاته. ثم إن جميع محطات عمر الإنسان لا تجتمع إلا على اختلاف بين طابع كل منها، وبما يميز نمط الحياة فيها . فلو أننا نحسب الأيام على أصابع أيدينا كما يفعل الأطفال ؟ لوقف الزمن وكرهنا كثيراً مما نحب ونشتهي...

فهذا اليوم صورة طبق الأصل عن الأمس، والغد مترقب قدومه باختلاف غير متوقع . أيحمل في طياته جديداً يكسر قاعدة الروتين الممل، الذي يكبلنا بأغلال واهية من صنع الخيال ولا يرجى منها قيمة ؟ أم ......؟

ـــ ١ ـــ

في عمر الإنسان بعض اللحظات من حقها البقاء، لأنها جديرة بالحفظ . فهي ليست إلا أقداراً تتخـــذ مـــن العقـــل الباطن مقراً لها ثم تنفض عنها غبار السنين، فتـــدفعنا فـــي مسارب الحياة من ضعف الحال إلى تحد المصير . مَثلنـــا كمثل البراعم،تنمو بتساقط الندى عليهافتزداد قـــوة كلمـــا عصفت بها الرياح ...

فلحظات العمر في أطوارها المختلفة لا تأبه لموقـــف فرض عليك، ولا يضيرها المعاناة من إحساس ألـــم بـــك، وليس لديها الحل الأمثل لما يصيبك من ضيق ومعاناة عندما تجد نفسك تسامر القمر، من غير عشيق...

أو عندما تراك تجلد فؤادك بعواطف عقيمـــة ،وتبـــث النجوم همومك بالحزن والبكاء... فيكون حصادك الســـراب ... فلماذا كل هذا الحزن؟

وانت وحدك الباكي، إن حزن الآخرون أم فرحوا ؟

أم أراك تظن أن الحب لا يولد إلا بعملية قيصرية،ولا ينمو إلا على هوامش الحزن ،ولا يتغــذى إلا مــن شــدة المعاناة!

حدثتني نفسي ذات يوم، أن أرســم علــى صــفحات الماضي ذكريات لم تخرج من رحم القدر...

أو أجمع من شتى أنواع الورود باقة أزين بها صــدر الزمن... ولكن أطرافي وإرادتي كانتا على وشك التخلــي عني، لأني ظننت بأنني سوف أجمع هذه الورود لأزرعها في حقول القمر،ذلك المكان الذي لا يزوره أحــد إلا فــي الخيال، ولا يتصور جماله أحد إلا في الأحلام ...

وبدأت أُكافح النسيان وأستجدي الذاكرة أن تجمع تلــك الخيوط المتشابكة في نسيج حياتي الماضية، على أمــل أن أستعيد صفاء الذهن ونشاط الجسم . إلا أن الفكر رفع راية العصيان ورحل عني بدون استئذان . وخشية عواقب الفشل قررت أن أذيب الحزن بحرارة العزم . وأن أبــدأ نهــاري بإقامة علاقة جميلة بين الفرح والســعادة . وأن لا أجلــس

طويلاً أمام باقة الــورد، خشــية هــدر الوقــت ،وحــرق الأعصاب في أتون التفكير، فيما غير فائدة ترجى أو أمل قد لا يتحقق.

فقد بات من المؤكد لدي، أنه من الصعب على المــرء أن يحتفظ بحالة من العشق، والقلــب لا يجيــد الإحســاس بالحب. ذلك الحب الذي ابتكره الرجل ذات يوم من أجــل امرأة أحبها، فأمضى العمر وهو يــروي لهــا الحكايــات ،ويزين لها الأماني ضمن آفاق جنته المرتقبة ... ،ثم أدرك أنه كالقابض على حفنة من الهوى...أما يقولون عندما يحب أحدهم إنه وقع في الهوى؟

فالحياة عمل وإنجاز ،وليس الهدف من الحيــاة صــنع تمثالٍ يُلمعه انسان ليستمتع به إنسان آخر. ومــا احتفالنــا بتمجيد عمل نعتز به أو نفتخر بإنجازه إلا تأبيناً له، فتلــك حقيقة تعلن عن نفسها قبل بلوغ النهاية التي لا بد منهــا... فلماذا نصر على جر الحياة إلى الخلف ،والأمل يسطع نوره من ظلام الفجر كل صباح؟!

فعندما يبدع المرء في الإنجاز، عليـــه أن يـــتعلم أن لا يبالغ في التمجيد،لأنه قادر على الإبداع مرة أخرى ،قـــادر على مقاومة اليأس عند وقوع الفواجـــع ... فعنـــدما يقـــف الإنسان فوق قمة التحدي، فمن الصعب عليـــه أن يرفـــع يديه مستسلماً لحالة من الضعف أو الإنهزام.

كان إيماني بالخيال الذي يراود عقول بنـــات الســـابعة عشر قوياً. تظن الواحدة منهن ،أنها تـــأمر القـــدر فيلبـــي، وتطلب المستحيل فيجاب طلبها...

ولكنني كنت أكره الصبر، وأحتقر مهانة الانتظار ،مع إيماني بأن الخيال وُلد كي لا يتحقق أحياناً إذ لا يعدو كونه لحظة تأمل عابرة تدغدغ قلوبنا بالفرح ثم ترجل ...

كنت على يقين بأن المعبر الوحيد لبلوغ الأماني هـــو العمل. فما بالي في هذه اليلة تصغي أُذناي لدقات الســـاعة، وهي تعلن منتصف الليل، وأنا ما زلت جالسةً في مقعـــدي، أحاول المرة بعد الأخرى أن أفهمشيءاً ممـــا كتـــب علـــى

صفحات هذا الكتاب،الذي تأبى كلماته أن تفصح لـــي عـــن معانيها فتجعلني تائهةً بين تقاطيع الجمل .

لا أستطيع سوى امعان النظر في الكلمات فكلما انتيهت من قراءة سطر، عدت لأوله كي أبدأ القراءة مـــن جديـــد، حيث تبدو المعلومة بين أسطر الكتاب غموضـــاً يشـــوش ذهني، ويسرح بعقلي كفكرة مجنونة تصر علـــى اقتحـــام رأسي واستباحة عقلي.

ولكنني أُصر على طرح هذه الأفكار بعيداً عني،خشية أن أشك في قواي العقلية . فما زلت أحاول شتى الوســـائل عبثاً للسيطرة على نفسي ،كي أستوعب بعض القليـــل مـــن هذه المعلومات .

فمن المستحيل أن يكون الدارس في كلية الطب، قـــد فقد القدرة على الاستيعاب في لحظة ما، ولكـــن المســـتحيل نفسه، أن يكون شتات الفكر ،وضياع التركيز ،سببان فـــي حدوث الأمر الصعب، فما أصعب الهرب مما نحب الهرب منه خشية نتائج لا يحمد عقباها ...

أعترف بأنني أقف أمام مجموعة من الألغاز، يتألف كل واحد منها من علامات استفهام لا حصر لها.

فكأن الكلمات ليس لها معانٍ واضحة في قواميس اللغة، أو كأنني لم اسمع بهذه المادة من قبل... أو قل إن شئت إنها الطلاسم، التي يستعملها المشعوذون بسحرهم، قفزت من قمقمها وسكنت رأسي بدون استئذان .

هذه الأفكار التي أحاول الهرب منها ،تصارعني بعنف، وتسد أمامي جميع المنافذ ،وتصر على شل إرادتي، فيشغلني الخوف منها عن التصدي لنتائجها ،وتمنعني عتمتها من الاستعانة بشفافية الأشياء الملموسة ،التي تحيط بحياتي ...

بودي لو استنزفت الوقت وضحيت براحتي، كي أدرك لماذا يستعصي علي الفهم ؟ لا أحب الوقوف معقود اللسان أمام مشكلة تفاصيلها عالقة بين أسطر الكتب.

تعلمت من أسرار الحياة حقائق ربما انكشفت أمام غيري بصور مختلفة ،ولكنها تحمل نفس المعني لأن السر

ما زال كائن في ممارستها، لذلك آمنت أن التحليــق بــين الحروف من أجمل الأوقات روعة ،وأكثرها سعادةً.

لقد نجحت في إقامة علاقة جميلة مع الكتــب، لأنهــا تعطيني من متعة المعرفة شغفاً لا يضاهيه شيء إلا حبــي لوالدتي والإسترخاء في حديقة المنزل ليلاً والسفر في أجواء سماء عمان حيث تبدو روعة جمال المدينة، كأنها عــروس في ليلة زفافها .

ورغم مرور الوقت، فإنني ما زلت أجلس إلى مكتبي، أمعن النظر في صفحات هذا الكتاب وقــد أذهلنــي عمــق معانيه، تائهة بين سطوره ،دون أن أجد وسيلة ترحل بفكري بعيداً عنه، فلم يسبق أن اعترضني موضوع كــان البحــث فيه، مدعاة لانشغال الذهن أو تشتيت الفكر مثــل هــذه الحالة الطارئة، التي تتحدى إرادتي ،فتخلق في داخلي رغبة لتمزيق هذا الكتاب، والإنتقام من جميع محاضــرات هــذه المادة التي لم يرسخ بذهني منها معلومة تذكرني بعنوان هذا الكتاب .

كان يشغلني قرب الإمتحان، فبدا علي الإهمـــال فـــي بعض الأمور الحياتية، وكسا وجهي لون شاحب ... وقـــد كنت قبل هذا اليوم لا أرهب الإمتحان لأن النتيجة مرهونة بالسهر الطويل وبالجهد المبذول...

كيف مرت تلك السنوات إذاً؟

فأنا كغيري من طلاب الجامعة . لا أنكر أن اســتيعاب بعض المواد، مرهون باسلوب المحاضر . ولا يغيب عـــن البال، أن المحاضر نفسه ،في كثير من ألأحيان يدخل قلوبنا قبل أن تدرك عقولنا مفاهيم مادته...لذ فإن مجال البحث عن الأعذار أمر مرفوض.

فماذا أكتب في كراسةالإجابة يوم الامتحان ؟

وهل تكون إجابتي إنني لا أذكرشيئاً من المحاضرات ".

أو أقول: لقد شت مني الفكر وانشغل بفستان هديل، أو فُتن بتسريحة علياء ؟

وهل أجرؤ على تقديم الكراسة بيضــاء خاليــةً مــن كــل سوء...؟!

رُحماك يا إلهي، فلا تجعل الفشل نصيبي، فما تــذوقت طعمه في حياتي أبداً، وليس في داخلي رغبــة للتعــرف عليه، بل إنني أمتلؤ رغبةً في النجاح، وترتسم أمامي أمالٌ عريضة في مستقبلٍ باهر... وما زلــت متحديــةً رغبــة والدتي، عندما أحببت أن أكون زوجة في بيت مــن طــرق الباب ذات يوم.

إنني ما زلت أذكر ذلك اليوم الــذي وطــأت أقــدامي أعتاب الجامعة، كنت يومها أحمل في رأسي أفكاراً ومفاهيم تحتاج لجهدٍ كبير كي تتحقق. كنت يوم ذاك، على درجة من التصميم ،يصعب معها أن تهن العزيمة، أو أن تسمح بــأن يتلاشى أملي الكبير، في تحقيق الأهداف، التي عشت فتــرة من الزمن أُمني النفس بتحقيقها...

لا شك أن عدم تحقيق الأماني شيء يحطــم النفــوس، ويجعل الإنسان يعيش على ركام تلك الأماني التي تحلم بها

فتاة التاسعة عشر. لقد زلزلني رفض والدتي متابعة الدراسة الجامعية عندما ظهرت نتائج امتحانات الثانويـــة العامـــة، ولكنني تغلبت على رفضها ...

وما زلت حتى اليوم أتساءل كيف حدث ذلك ؟

لا أقول بأنني تغلبت على رأي والدتي .ولكن دعنـــي أقول بأنني تخطيت عقبة جعلت من ظلام مشكلتي إشـــعاعاً ضعيفاً من نور يبدد بعضاً من بقايا الظلام

إذ إن والدتي صاحبة موقف لا يتبدل ،ورأيٍ لا يقبـــل الجدل... فهل يكون من السهل علي أن أعيش حياة لا معنى لها ولا هدف أسعى لتحقيقه ؟

وهل أمضي بقية حياتي رهينة البيت ،يقتلنـــي الملـــل بانتظار العريس ؟

لن يحدث هذا الأمر . فأنا أريد أن أحقق الأماني التي تحتشد في أفق خيالي، وأرسم حياتي بـــإرادتي . أريـــد أن

أحصل على شهادة جامعية، بل أريد أن أدرس الطب، وان أقرأ الشعر، وربما تعلمت الموسيقى والرقص،

إسوة ببنات جنسي ... وأريد أن أسافر،وأريد أن أمارس حياتي كما أشاء، وأريد...

قائمة من الرغبات لا تعد ولا تحصى .ولكنني الآن أصر على أن لا أنفذ أوامر تجعل مني زوجة تدفن عمرها بين المطبخ وتربية الأطفال، وإن كان هذا الأمر لا بد منه، فليبدأ تنفيذه في وقت متأخر بعض الشيء .

أما قلت لوالدتي ذات مساء، عندما طلبت إلي مقابلة الضيوف، الذين حضروا لطلب يدي للزواج . أما قلت لها إنني لست مستعدة للزواج، فما زلت صغيرة يا أمي، فلا تتعجلي الآمر وأنا في هذه السن المبكرة .

أريد أن أكون أول طبيبة في العائلة فساعديني يا أمي. ولكنها أغمضت العين عما ترى وأصمت الأذن عما تسمع... وأصرت فكان لا بد من تجهيز نفسي لذلك الموقف الذي تتمناه كل فتاة وتترقب مقدمه بفارغ الصبر.

فقد جلست آنذاك أمامالمرءة، أُحدق بنفسي، أتصورها طبيبة كما أريد وأتمنى، ترتدي المريلة البيضاء، تحيط بعنقها السماعة الطبية ،تخفف الآلام عن المرضى وتساهم في إنجازات إنسانية . وتارة أخرى، أراها عروساً ترتدي فستان الزفاف الأبيض ويطوق جيدها عقد جميل، يكون قيداً لها مدى الحياة... كما تريد أمي وترغب .

وبت أشعر بأنني أمام أمرين أحلاهما مر . تصميم أمي على تنفيذ رأيها، ورفضي فكرة الزواج وما يتبعه من مسؤوليات البيت من واجبات الزوج وتربية الأولاد والحياة الإجتماعية بما تحتوي عليه من عادات وتقاليد ...

ولكن غضب أمي يسبب لي القلق والإضطراب ويشعرني بعدم الرضا. فلا شك أن غايتها سعادتي، وهذا شغلها الشاغل، فلا يجول في خاطرها سوى ما تحب لي من سعادة وهناء .

فهي تجود لأجلي بكل شيء عن طيب خاطر، وتضحي ولو كانت التضحية بأغلى الأثمان، إذ ليس للحياة عندها من

قيمة إذا لم تكن وسائل العيش قائمة على العطاء والتضحية مثلها كغيرها من الأمهات ...

لقد كرهت هذه المقارنة ،ومللت هذه الأفكار، وأفزعني هذا التصور للحياة الزوجية ... تعجبت من أمر والدتي في ذلك اليوم،فهل تريدني أن أباشر الأُمومة مبكراً بعض الشيء؟

أم تريدني حبيسة عش الزوجية في غير الأوان ؟!

طلبت إليها أن تتريث قليلا، فلا زلت في سن لا تسمح لي بتحمل هذه المسؤليات ولا طاقة لي بالقيام بما يطلب إلي من واجبات في بيت جديد وفي ظل رجل غريب .

قالت : إن ذلك لا يحتاج لمدرسة، فالحياة ...

قاطعتها قائلة: أعرف أن الحياة مدرسة، ولكن لا يكفي أن تكون مفاتن البنت، ونضوج أنوثتها ،تأشيرة المرور لبيت العريس.

قالت: دعك من فلسفة الكتب .

ثم انصرفت عني ،وتركتني في دوامة غامضـــة مــن التفكير، في مستقبلي الذي تتوقف نتائجه على احتساء فنجان من القهوة، يقدم لرجل غريب يستغل خجل الفتاة وحياءهـــا، عندما تجلس أمامه، فيحاصرها بجرأته، ويغريها بعبـــارات متعارف عليها بين الناس في مثل هذه المناسبة . هـــذا العريس، يعرف قبل كل شيء ما يريده من المرأة ...

لأن المرأة عنده أنثى كغيرها من النساء ... إلا أنه بكل تأكيد يبحث عن مواصفات ومقاييس معينـــة رســـمها فـــي خياله،قبل أن يطرق أبواب الناس . إنه بلا شك ،يبحث عن وجه جميل، وصدر ناهض، وقوام متناسق، وزنـــد عاريـــة و...

فماذا أفعل مع كل هذا التصميم ؟

هل يكون الإستسلام لرغبة هذهالمرءة هـــو المصـــير الذي ألقي نفسي به طائعة دون اعتراض ؟

فقد شعرت بأنني أفقد خيط الحنان الذي يربطني بها . أردت أن أضم إلى صـــدري هـــذهالمرءة التـــي نصـــفها

يغضبني، ونصفها الآخر يحتوي كنـــز الحنـــان، الـــذي لا استطيع الاستغناء عنه ...

أحببت أن ترسم قبلاتي وشماً جميلاً على جبينهـــا، إلا أن اصرارها كان حائلاً دون ذلك .فكأن سعادتها لا تكـــون إلا حيث تبدأ تعاستي، فإن أردت أن أبكيها ســـبقتها عينـــي للبكاء، وإن أردت أن أغضبها، كان الحقد من نفسي علـــى نفسي هو الجزاء .

وعندما ذهبت للنوم لم يفارقني إحساس بالإحباط مـــن تصرفاتها هذه الأم، ولم يرحل عني منظرها وهي تلقي إلي بكلماتها التي ما برحت تطرق مسامعي بعنفٍ وغضب .

فقد وضعتني أمام موقف سبب لي الكثير مـــن الألـــم، وجعلني أمضي كثيراً من الوقت ،متأملةً قدري الذي ترســـم معالمه حسب قناعتها ورؤيتها ،ولا أملك الحق فـــي إبـــداء الرأي أو حتى لا أملك الفرار من هذا المصير. فأنـــا لا أستطيع اتهامها بالتخلي عن حنانها، ولا أحـــد يســـتطيع أن يوجه إليها شبهة تجردها من عاطفة الأمومة ولكـــن هـــذا

التعجل في اتخاذ القرار، يولد في داخلي اصـــراراً علـــى التحدي .

فلن يحدث هذا الأمر يا أمي أبداً، ولن يمر هذا القرار بالسهولة التي صورها لك خيال أم لا تنظر لمستقبل ابنتهـــا في غير بيت الزوج . فمنذ هذه اللحظة حتى موعد حضور أولئك الغرباء . سوف يكون لي موقف يحفظ حقي الذي لن أتنازل عنه، وسوف اُحدد هدفاً يترتب عليه مستقبل حياتي.

كان ذلك كفرح يخبو خلــف ســتائر اليــأس الــذي يتسرب إلى نفسي بلا هوادة . وأنا على يقين بــأن جميــع المنافذ أغلقت دوني، وأنني أسير في طريق مسدود. ومــع هذا فلا بد من محاولة خلق الأمل من رحم العــدم، وجمــع شتات قوتي لمجابهة الواقع، لأخرج من دائرة هذا اليــأس الذي بدأ يمتص الحياة من عمري... فلن أتيح لك يا والدتي فرصة التنبؤ بما سيحدث !

ـ ٢ ـ

كانت ساعات الليل قاسية موحشة، حرمتني النوم في تلك الليلة، فانتظرت إلى أن تربعت الشمس فوق قبة السماء، بعد ليلة سكبت السماء أمطاراً غزيرة، حتى ظننت أنها قد أفرغت جميع ما تكتنزه السحب من ماء...

كان البرد يتسلل إلى أطرافي، وكانت تجتاحني رغبة قوية لدحر أشياء تبدو أمامي غامضة مرعبة...وتتقاذفني أفكار تجعلني غريبة حتى عن نفسي .

فكأنما كنت أسير هائمة في شوارع مزدحمة لا أعرف فيها أحد، يشير الناس إلي بعلامات تعجب واستغراب، وتعلو ضحكاتهم في إذناي فترتجف جميع أطرافي خوفاً وهلعاً من طيف مجهولٍ ، قد يحل ضيفاً ثقيل الظل في وقت غير مناسب...

بودي لو كان موعد مجيئهم شيئاً ملموساً لحطمته كي تنتهي أسطورة المواعيد التي تحبط النفوس...

وتمنيت لو كان بمقدوري شطب جميع هذه المواعيد من قاموس الوجود، كي لا يكون للإحباط مكان في صدور اولئك الذين لا يشعرون بالراحة.

فكم كانت رغبتي بأن لا يتحقق هذا الموعد ...فلن أعشق المواعيد بعد اليوم، ولكن، ما حيلتي وليس لدي شيء أفعله سوى الترقب والإنتظار ؟

وقبل موعد حضورهم بقليل، أطلت الوقوف أمامالمرءة، فألقيت نظرة فاحصة على نفسي، لا شك أنني مغرمة بحب هذا القوام، فلا عجب في ذلك، فتلك طبيعةالمرأة، مهما كانت درجة جمالها .

وخُيل لي أنني أدقق النظر في هاتين العينين الزرقاوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق، وهذا الوجه الجميل لأول مرة في حياتي . وكنت أسترق النظر لوالدتي التي كانت ترمقني بإعجاب وقد ضمنت موافقتي وتحقيق هدفها...

فقلت لنفسي لو تدرين يا أمي ما أنوي فعله لتحول هذا الإعجاب إلى شيء يشبه الكره، ستغضبين قليلاً، أعرف

ذلك وليس لدي أيما شك فيه...وسوف تعتبرين تصرفي هذا تحدياً لرغبتك،لا ريب في ذلك أيضاً.

أعرف أن هذه التصرفات لا تـــروق لـــك...ولكننـــي استميحك العذر يا أمي،فلا أريد أن أبدأ حياتي فـــي ســـرير رجل ليس من حقي إبداء الرأي بشخصه. فكلمـــا جئـــت سريره وجدت الكوابيس قد سبقتني إليه، فلا أحـــس بطعـــم العاطفة إلا بعد فوات الأوان ...

لا أريد أن أفقد نفسي بقرار لا أملك الحق في صياغته.

فماذا تساوي الحياة الزوجيـــة إذا احترقـــت عاطفـــة الإنسان؟

وماذا تعني اسطورة الحب ،والقلب تحتشد من حولـــه شلالات من الحزن ؟

إنه الندم . عندما تغور العاطفة في قعر بئرٍ عميقة لا سبيل للتشبث بأحبالها البالية . فلا فائدة من محاولة بنـــاء جسور محبة واهية، تقام علـــى أســـس فقـــدت مقومـــات

الصدق، فتلاشى الإحساس من الفؤاد وتجرد القلـــب مـــن عاطفته ثم أصبح النبض عارياً كأشجار الخريف . لا فرق فالحقيقة عارية أيضاً ولكنها تخفى علـــى أعـــين النـــاس فيمقتونها.

فلماذا إذاً تكل أقدامنا ونحن نلهث خلف السراب بحثـــاً عن الحقيقةأو محاولة اكتشاف ما تخفيه من أسرار ؟

أريد اختصار الطريق، واختزال الزمن . ولا أريد أن أفرض على مستقبلي مهانة الضعف واستجداء المفلسين...

فكم كان بودي لو أن حرية الاختيار بيدي، فلن أعيش العمر بعد ذلك اليوم، أحلم برجل يعشش حبـــه فـــي أفـــق خيالي، أعد له المكان كل ليلة وأفاجأ بغيره يتربـــع فـــوق السرير... فرغم لهفي عليه وشغفي لموعد لقائه، فلا أجـــد سوى الحزن بانتظاري، بينما ينام الفرح في سرير غيري ... فليس لدي شيء أفعله حينئذٍ سوى إصدار بيـــان ينعـــى العدالة.

في ذلك المساء – لا أقول المساء الجميل – جاءت إلى البيت بعض النسوة يتقدمهن العريس نافخاً صدره مثل ديك الحبش، واحتلوا مقاعد الصدارة في البيت، فنظرت إليهم خلسة، فخيل إلي بأنهم زمرة من الأشرار ليس في تقاطيع وجوههم شيء من الرحمة، أو أنهم تماثيل هشة ،نصبت فوق قواعد لاأساس لها تراقصها الريح ،وتحيط بكل واحد منهم علامات استفهام غامضة مخيفة . فصُعقت ضيقاً وخوفاً .

كنت أراقبهم وكأنما كنت أراقب شبحي بينهم ،كشجرة ضلت مكانها في غابة عظيمة الأتساع . فلا أدري هل أحتفي بهذه المناسبة فأفرح، أم اُهيئ نفسي لارتداء ثياب الحزن ؟!

هذا هو الشيء الطبيعي، فكل فتاة تنتظر هذا اليوم، فتعد له العدة على أن يكون الوقت مناسباً . أما وأنا في هذه الحالة فإن الأمر مختلف ، والوقت غير مناسب . فقد

منحني هذا الخاطر ارتياحاً خفف عني توتر الأعصاب الذي ألم بي منذ أصرت والدتي على تنفيذ رأيها ،

أم أنفض يدي من الموضوع برمته وأعتبـــر أن هـــذا الجمع، لحظة إهمال طرقت هامش حياتي، وسوف تتجلـــي دون أن تبقي في ذاكرتيشيءاً يجعلني أحن إليها في يـــوم من الأيام . ولكنني تذكرت غضبها وما تؤول إليه حالهـــا، فندمت. فكيف أسمح لهذا الخاطر الشيطاني أن يلوث العلاقة بين البنت ووالدتها ؟

لا أعرف كيف أضع لهم التصنيف الملائم ؟

فليس من الضروري أن يكونوا أبرياء، لأن وجـــودهم هنا كفيل بأن يضعهم في قفص الإتهام، فهذا الحكـــم الـــذي صدر مني، غير قابل للنقض ...

فلا بد أن تملك ناصيةالاختيار بنفسك، وعليك أن تحسم الأمر، وإلا سوف تمضي أكثر من نصف عمـــرك وأنـــت تعتذر عن ذنوب وجرائم ارتكبها الآخرون، حُسبت عليـــك،

وأنت لا ذنب لك فيها، لأنك أنت الضحية، والضحية لا وزر عليها...

كنت أعتقد أن العريس المناسب لا يختلف عن العملة النادرة، فحيثما تبحث عنه تفقد أثره، إنه لا يختلف عن الأشياء النادرة . فإن لم يكن الزواج عن حب فهو هدية المصادفة . ولهذا قيل إن الزواج قسمة ونصيب ... إن طموحي لا يستوعب وجودهم في البيت .

واحترت يومها كيف أتعامل معهم ؟

وبأي أسلوب يدور الحديث بيننا ؟

وكيف تنطبع صورتي في خيالهم ؟

وبأي نتيجة تنتهي المقابلة؟

لا أنكر أنه لم لا يكن لدي الاستعداد للاختيار قبل مجيئهم، ولذلك فقد صرفت النظر عن اختيار الثوب المناسب، مع أن تصفيف شعري استغرق وقتاً طويلاً .فقد أحببت أن أبدو جميلة ،لأن الجمال يمنح الفتاة قوة في

شخصيتها. ولكن، سرعان ما تبدل الرأي . حيث في عجلة من الأمر، وضعت بعض المساحيق على وجهـــي، الـــذي بدى بكل تأكيد مضحكاً واخترت ثوباً لا يمت لمثــل هــذه المناسبة بصلة، تتشابك ألوانه في غيــر تناسق،فضــفاض، بحاجة لفتاتين تندسان فيه .

فكان شكلي أشبه ما يكون بمهرج السيرك، بارع في مهنته، يبدو سخيفاً، مضحكاً في نظر الآخرين، رغم أنه ربما كان يكتنز في داخله هموماً وأحزاناً لا قيمة لها لدى المشاهدين ،إلا أن وظيفته تملي عليه اسعادهم ..

وذهبت إلى المطبخ، أعد القهوة، فهي ميزان الحكم. ارتجفت أناملي وأنا أسكب السائل البني في الفناجين .

فهل أوزع الرغوة على الفناجين ليكون منظرها أجمل، أم أسكبها هكذا ،كما يحلو ،فيختلط الحابل بالنابل فلا تنال رضاهم.واستقر الرأي على جعل مظهر القهوة في النفاجين غير لائق، وهذا هو المطلوب.

ثم حملت الصينية بيد ما زالت مرتجفة، ونفس مضطربة، وقلب يكاد يقفز من مكانه خوفاً وهلعاً من نتيجة لا يُحمد عقباها . وتقدمت نحو صالة الجلوس، أُقدمها للضيوف، وكان علي أن أجلس قبالة العريس،فوق ذلك المقعد الذي أُعد لي كي أكون وجها لوجه للعريس وعلى مقربة منه، وغير بعيدة عن لجنة الاختيار من النسوة اللواتي حضرن معه .

ومنذ أن جلست في مقعدي ،شعرت أن وخز عيــونهم، ينصب بقوة على صدري وخصري وســاقي ... نظــراتهم تزداد حدة وقسوة، فتنتشر الألم حيثما تسقط على جســدي فتغرقني بهالة من الإحباط ... ولعل تلك النظــرات كانــت تجردني من ثيابي، حتى أبدو عارية أمامهم ،كــي يشــبعوا نهمهم ...

توقف الحديث بينهم حالما جلست وكأن المهمة لا يــتم انجازها إلا بالصمت . لا لن أنتظر نتيجة صــمتهم، ولــن انتتظر سماع الكلمات الجافة تخرج من أفواهم بلا معنـــى،

فتعلن نتيجةً لا أرضى عنها أو تظهر على وجوهم ملامـــح فشل مهمتهم، فتلك غاية ما أرجوه..

وأخذ العريس وكل من جاء معه، يرمقونني بنظـــرات فاحصة، وأنا متقوقعة على نفسي قبالبتهم ، أتخذ من خجلي وارتباكي دثاراً يحمي ضعفي، فبدوت في نظـــري ضـــئيلةً جداً، صغيرةً على مقابلة العرسان،ولا أبدو في هذا المظهر الذي نتج عن مزيج من المساحيق، لونت بها وجهي بطريقة تدعو للسخرية، لا أبدو على مستوى تلـــك الدرجـــة مـــن الجمال، الذي يتوق إليه فارس الأحلام .

فاحتقرت تلك التقاليد التي تدفع بالإنسان للتخلي عـــن كرامته، عندما يجعل من نفسه تمثالاً يشبع نهم الفضوليين. وأيقنت يومها أننا ما زلنا نعيش عصور الظلام، وأن أسواق الرقيق مازالت قائمة، ولافرق بيني في موقفي هذإن وبين الجواري، يعرضن مفاتنهن علـــى التجـــار فـــي أســـواق النخاسة...

ثارت انفعالات وجهي عندما أيقنت أن عيونهم لا ترحم خجلي، بل تمعن بإنجاز المهمة التي حضروا مـــن أجلهـــا بعناية شديدة، ليدونوا في كشف الدرجات، مقياس النجـــاح من الفشل ... وعادت علامات الإستفهام الغامضة، ترسم أمام عيني خطوطاً رمادية تحجب الرؤية...

راقبت العريس وهو يسترق النظر خلسة إلى وجهي، وتنزلق عيناه نحو صدري، ويتوقف بصره عند قمة نهدي، ثم ينتقل إلى ساقي، يمتص اللذة من تجوال عينيه إثناء رحلة في منطقة محرمة كُتب عليها بجميع لغات العـــالم ممنـــوع التجسس ... لكنه عريس ويحق له في هذا الموقف مـــا لا يحق لغيره، كي يسعد فتلاقي نشوة روحه القبول أو تصطدم بالرفض .

إذ ليس من حق أحد أن يحاسبه على النتائج في هـــذه المناسبة، فهو صاحب القرار ... فاحمر جبينـــه ونصـــع بياض عينيه عندما كشفت أمره ... اغتصب ابتسامة تعبـــر عن تلك الرغبة التي دفعته للحضور إلى هذا البيت .

فشعرت أنه يتلذذ بشيء ليس من حقه التمتع به، فأنا لا أؤمن بهذا الحق العفوي، ولا أعترف بهذا الواقع الملمـــوس الذي جمعنا في موعد غير مناسب. فكان أن رحمنـــي الله، ولطف بحالي، وصرف اولئك الغرباء، بعد أن شربوا قهوة "عدم الرضا ".

وانصرفوا دون أن يحققوا رغبةً في نفوسهم ..، تلـــك الرغبة التي تفرح والدتي ،وتشعرها بأنها قـــدمت إلـــيهم، زهرةً سهرت الليالي، ترعاها وتعدها لمثل هـــذا اللقـــاء . ولكن خاب أملها .

لم تستغرق زيارتهم وقتاً كبيراً، فقد كان الجـــو ممـــلاً والحديث تافهاً ثقيل الظل ... تساءلت وأنا أجلـــس بيـــنهم، أيكون الشباب في معظمهم مثل هذا الشاب، يظنون أن الفتاة التي يسعون لخطبتها لا تعدو كونها تحفة جميلة سوف تزين أحد أركان منازلهم ؟

حتى وإن كان هذا هو الصواب، فإن الأشياء التي نبذل مالاُ وجهداً في سبيل الحصول عليها ،لا يقـــدر ثمنهـــا إلا

عندما تكون الراحة النفسية هي أحد أسباب وجودها في البيت.

فهل يظن الشباب أن الفتاة ليس لها عين تبصر ؟ فتعلن الرفض او القبول . أو ليس لها رأي تعلنه صريحاً مهما كانت النتائج... أم إن القبول والرفض يكونان دائما بيد الرجل ؟ لا فرق في ذلك بين هذا الأمر والعصمة التي تكون دائماً ملكاً للرجل.

أثلج صدري رحيلهم، فقد يتبدل هذا الجو البليد، وأتحرر من هذه القشعريرة التي تسري في جسدي، ويتلاشى شعور الحقد الذي أحمله في داخلي لهذا العريس، الذي لا شك أنه يبحث عن وجه جديد يضيفه لقائمة الاختيار التي يحرص على زيادة عدد الفتيات فيها...

أعرف أنني لم أدخل ضمن ضحاياه، ولكنه أشعل في داخلي صراعاً بين قيمة النجاح وفضيحة الفشل ... كم أود لو استطعت أن أصفعه أو أقذف به خارج البيت، كي يفهم أن لبيوت الناس حرمة فلا يحق له التعدي عليها.

إلا أن الصبر الذي كبر في صدري فجأة، قد دفعنـــي لاحتمال وقاحته، والتغاضي عن نظراته...فحاولت جهـــدي أن أصبر، وأن أتحدى نفسي من أجل والدتي ،التي أصابها من ألإحباط ما إن وزعته على فصيل سلبته الأفراح .

هكذا كان اللقاء بيني وبين أول عريس يتقدم لخطبتي، وقد انتهى هذا اللقاء، أو قل : إن شئت انفضت هذه الزيارة التي لم يُرحب بزائريها الترحاب المناسب...ولكن الأمور لم تكن كما أحببت لأن نفسي امتلأت بالنفور .

وما كادت أمي تغلق الباب خلفهم، حتى تنهدت ارتياحاً ودعوت الله أن لا يعيد مثل هؤلاء الضيوف إلـــى البيـــت، ونظرت إليها خائفةً، أسفةً لشعوري بعظم الصـــدمة التـــي تلقتها، وأفزعني غضبها فارتعشت شفتاي كالمتهم عنـــدما يبحث عن النجاة بالكذب.

بعد مغادرتهم،جلست وأنا في حيرة من أمري، أريد أن أعرف حقيقة ما حدث، كنت كمن تنظر من خـــلال ظـــلام الليل لتكتشف مجهولاً خلف أكمة كثيفة الأشجار، فلا تظفر

إلا بالظلام، يحجب الأكمة ويخفي أثـــار ذلـــك المجهـــول، فضايقني أن تعجز بصيرتي عن ادراك مـــا يـــدور بخلـــد والدتي.

كان مظهرها ينم عن غضب ساكن، يحتاج لمن يحركه فينفجر . رمقتني بعيني تملأهما الدهشة، وقد اختفى تـــورد وجهها ثم بدا لي أن ليس لديها شـــهية للحـــديث، فخشـــيت عليها. ولا أنكر بأن حلقي قد جـــفّ فـــأعجزني النطـــق . ورغم هذا الإحساس فقد داخلني شيء من الســـعادة لأننـــي وقفت على اُولى درجات الفوز .

تقربت منها، ولكنها تراجعت في مجلســـها، وبصـــوت خافت يحمل كل معانٍ الحزن والألم، قالت:

ــ هل ما زال لحبي في قلبك مكان ؟

عجبت لهذا السؤال وقلت :

ــ وهل تشكين في ذلك ؟ .

قالت : أطلب إليك باسم هذا الحب أو هذا الاحترام،

ـ سمه كما شئت، أطلب إليك أن تتركينني وحدي، فــإن الوحدة كفيلة بأن تعيدني إلى جادة الصواب، وإن لــم أجــد وسيلة تطرد من ذاكرتيشيءاً لم أتوقع حدوثه، طلبت العون منك .

ثم انحبس الكلام في فمها وأبت الدموع فراق محجر عينيها . ارتسم الإضطراب على محياها مخلفاً حزناً والماً. فتمنيت رؤية الدمع يجري فوق وجنتيها ،لأن الحــزن مــن غير دموع أشد وطأة على الإنسان من الألم .

فأيقنت بأنني سببت لها ألماً، وأحييــتُ فــي وجــدانها ذكريات أحبت أن تكون في طيات النســيان ... أو ربمــا جعلت منها فريسة لخواطر دفينة كان الأجدر بي تجاهــل أسبابها وعدم العودة إليها كي لا يزداد الموقف تعقيداً .

وفاض طلبها صدقاً في صدري . فهل كنــت قاســية، أنانية تأخذ ولا تعطي ؟!

وهي بما أحبتني لم تجن من حبهــا ســوى الــرفض الإحباط وارتفاع الضغط !!!

فلم أتبين موقفي منها . وكأنما نشب خلاف بيني وبين نفسي فشق نصفي الآخر عصا الطاعة ،فاشتدت بي الحيرة. فلا شك بأنني مدينة لها بكل الحب، هذه حقيقة لا اخـــتلاف عليها .

وأنا على يقين بأنها ليست من اولئك اللواتي يتظاهرن بالأزمات القلبية، فتنطلي الحيلة على من حـــولهن لـــيحققن مآربهن، كما يفعل ممثلو الشاشات المرئية ...

إنها أقوى من ذلك، ولكنني على معرفة بأنها ربما تتأثر بارتفاع السكري الذي يتفشى بين شريحة كبيرة من أبنـــاء الشعب الأردني . والحمد للـــــه الذي منّ علينـــا بكرمـــه مرتين هذه الليلة، حيث أنقذني من الإقتران بهذا العـــريس، وأبعد عن والدتي أعراض مرض الســـكري التـــي تكـــون حاضرة في مثل هذه المواقف، الأمر الذي طمـــأنني علـــى صحتها فصليت ركعتين شكراً وامتناناً له سبحانه وتعالى.

ـ ٣ ـ

وحين هبط الليل، جلست إلى نافذة في غرفتي، وأخذت أقلب الأحداث على ضوء شمعة واهية، فأسفت لما بدر مني ولمت نفسي التي جمحت في لحظة غيظ، وخـدعتني فـي حالة ضعف... وكان أمامي أساليب كثيرة تجعـل هـؤلاء الضيوف ينصرفون دون تحقيق غايتهم مـن غيـر إثـارة الشكوك في نفس والدتي وزرع الغضب في قلبها.

ودرجت أيام الحياة على غير ذي شكوى . ثم جعلـت الأحداث تمر بذاكرتي حدث بعد حدث ،وكانت تلك الأيـام تنزلق من عمري بغير رقيب ولا حسيب . فضاقت علـي نفسي. فرأيت أن من الخير أن أترك هـذا المكـان .فقـد أصبحشيءاً يصعب تسميته . فما كان بيتاً له باب وقفـل ، يحميك من عدو يتربص بك، وما كان نزلاً نبحث فيه عـن الراحة والسعادة . وإنما أصبح ميداناً أهرب فيه من هلـع الخوف إلى ذل الإهانة . فكأن العذاب يسـكنه، والكراهيـة تغذيه .

ومن عجب أنك تكتشف الحقائق مصادفةً، لأن الحيـــاة تبدو سلسلة من المصادفات . فقد اكتشفت صـــدفة أن قـــوة الإرادة عند والدتي كانت أقرب منها إلى الضعف أحيانـــاً، وأن الإصرار الذي بدا منها لم يكن سوى شحنة مـــن ردة فعلٍ، ربما ذهبت أدراج الرياح دون أن يكون لها أثر، ما لم تكن تلك الأمور التي حدثت مرتبة ترتيباً أحسنت خـــالتي صياغته... هذه المرءة التي كنت أكن لها احتراماً لا يقـــل عن احترام والدتي . فقد أقنعت أختها بـــأن زواج البنـــت سُترة لها، وكانت على قناعة بأنني لا أرفض لوالدتي طلبـــاً ولا أخالف لها رأياً .

وثمة حقيقة لابد من عدم إنكارها والإعتراف بها :

فلو أن هذا العريس اعترض سبيل حياتي قبـــل ســـنة واحدة، ربما أُتيحت له فرصة الإقتران بيَّ . أمـــا اليـــوم، وبعد حصولي على الثانوية العامة، فقد أصبحت أنظر إلـــى الجامعة بعينين يملأهما الأمل، وأعد نفسي لممارسة الحيـــاة

فوق مدرجاتها ،وتحقيق حظي من العلم كغيري من بنـــات حواء...

وداخلني شعور بالحرية لم أشعر به من قبل، وســرى في جسدي شيء من الارتياح ابتهج له الحس والإلهام وحتى الخيال ناله شيء من السرور ... لقد هيأت لي الظــروف خروجاً موفقاً من محنة لازمتني دون أن أجد صديقاً يقــف إلى جانبي، ويشد أزري ويهون علي مصابي.

فلم أتوقع أن تكون الحياة أشق مما ظننته أملاً فازت به نفسي لتجنب أقدامي مطبات ،لم يكن خيالي على رؤيـــة واضحة لمصاعبها، ولكن الأمل ما يــزال يــدفعني بقــوة الشباب وحماس الإرادة دون النظر إلى الخلف.

إلا أن شرود ذهني وشتات فكري يسلباني القدرة على متابعة السير في طريق المطبات، ويجعلاني صيداً ســـهلاً للوساوس والظنون . فما أحببت أن أكون ضحية سهلة تقع في براثن الحياة الرتيبة، التي تمارس دور السيطرة والهيمنة على مقدرات كثير من الناس . وكان الخوف يراودني خشية

أن يخبوَ الأمل من أفق حياتي فأرجع للحياة الرتيبـــة التـــي أرفضها .

فعندما واتتني الشجاعة فألقيت بالزوار خارج البيــت، وأغلقت دونهم الأبواب، ثم اتخذت قراراً أوصدت بموجبــه أبواب قلبي أمام أي طارق، وأعلنت أن الزواج قد تأجل إلى إشعار آخر. فما كان أشد فرحي وسعادتي حــين شــعرت بالأمن، فأيقنت بأن عهد التعاسة قد ولّى وانتهــى أمــره ، قفزت من الفرحة احتفاء بمولد إرادتي .

لذا فقد أبيتُ العودة لحياة الروتين، ورفضت الشعور بالإحباط، وتوقفت عن الهرب من الكبت، ثم تغلبت علــى الصراع النفسي وكأنما تفتحت لي طاقات الفرج فأصبحت في هذه الدنيا وليدة هذا اليوم الجديد .

وما أكثر الخوف من التفكير بشيء قبل الإقدام عليه، وكثيرا ما نضع احتمالات الفشل امام أعيننا قبــل التنفيــذ، فنشعر وكأننا نحمل أثقال الدنيا على رؤوسنا . فنكتفي بنشوة الفرح عن تحقيق الهدف . ثم نقتنع بأن فرحُ ساعة خير من

حياة دهرٍ بجردها البؤس من أدنى مشاعر السعادة . فنظــل نراوح في أماكننا كأنما نحن أشجار غير مثمــرة زرعهــا فلاح غير ذي خبرة في مكان غير مناسب.

استيقظت مبكرة كعادتي في كل صباح ،والنعاس مــا زال يثقل أجفاني وفي خيالي تتــراقص أحــداث الأمــس بدقائقها وثوانيها . فالتفت نحو غرفة أمي المقابلة لغرفتــي ،فإذا الباب نصف مفتوح، فأيقنت أنهــا ليســت نائمــة . أصغيت السمع ،فإذا بها تسبح وتكثر مــن الــدعاء، فتلــك عادتها بعد الانتهاء من الصلاة .

فتمنيت لو أنني أعود نفسي على هذا الإتصال الطاهر بين العبد وربه خمس مرات في اليوم . تلك نعمة تمنيت لو أن الله يمن بها علي . ولعل هذا الأمر لا يحتاج من الإنسان سوى قليل من الإرادة وكثير من العزم .

ارتاحت نفسي لهذه الآمنية فصممت علــى تحقيقهــا، وأخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر لفراشي، هذا الســرير الــذي صاحبني سنوات، وهذا الترتيب الذي ترتاح إليــه نفســي،

وتلك الستائر التي كم أجهدت نفسي فـــي اختيـــار ألوانهـــا وتصميمها ، وهذه الأضواء التي تلقي ظلالها هدوءاً ترتاح إليه النفس، وهذه النافذة المطلة على تلك المنـــاظر التـــي ألفتها وأحببت التمتع بها ... فهل تلاقي جميع هذه الأشـــياء نفس الهوى لدى الزوج ؟

وإن كانت أذواق العريس والعـــروس علـــى طرفـــي نقيض...!

فماذا يحدث ؟ ؟؟

وحتى الألعاب والدمى التي ما زلت أحتفظ بهـــا منـــذ طفولتي، هل يتقبل العريس وجودها على السرير أو في أي مكان في غرفة النوم ؟

وهل يدرك العريس أن سر الإحتفاظ بهذه الألعـــاب، مؤشر على استمرار طفولة الإنسان لسنوات أكثر مما نظن ؟... فلا نتعجب عندما يقولون : أن فلاناً طفل كبير .

يبدو أنني بحاجة لإسلوب جديد من العــيش إن حــدث الزواج ذات يوم . فقد تجبرني ظروف الزوج على تغييــر حياتي، غير أنني الأن لست على استعداد للتغييــر . فــلا حاجة لتخطي الزمن والعيش في حالة من الترقب.

أسرعت إلى الحمام وسكبت كثيراً من الماء البارد على رأسي، فشعرت بالإنتعاش والحيوية، وما إن أعددت نفسي للخروج من البيت، ألفيت طعام الإفطار جاهزاً كالعادة دون أن تؤثر أحداث الأمس على روتين البرنامج اليومي . حيث وجدت والدتي منتظرة تبدو هادئة، تراقب حركاتي بنظــرة حادة تنم عن شيء تخفيه في صدرها ...

فأنا أُدرك ذلك من نظراتها... ألقيــت عليهــا تحيــة الصباح، فردت بصوت خافت كأنه قادم من أعماق جبــال مدينة عمان وليس من فوق روابيها.

قالت : دعوت لك بعد صلاتي.

قلت : شكراً لك يا أحلى أم .

لا جديد في موقفها حتى الآن، فقد تعودت سماع دعائها كل صباح .

استطردت قائلة:

ــ إن ما حدث بالأمس زلة شيطانية، فأنــا أعــرف لمــاذا تعمدت الخروج بشكل مضحك، وثوب غير ملائم، وإجابات مختصرة و... كــان مــن الواجــب مراعــاة الظــروف، والتجاوب مع الضيوف ،ولو من باب المجاملة

أيقنت أنها تجاوزت المحنة التي مرت بها، فجرت على شفتي ابتسامة لطيفة لهذا النتيجة فقلت:

ــ لم يكن بوسعي أن الاطف ضيفاً عابراً ،أو أجبر نفســي على مجاملة شخص لا عهد لي بمعرفته، وليس في نيتي أن يكون لهذا اللقاء موعد آخر، لا سيما أنني شعرت بــالنفور وعدم الارتياح لهذه الزيارة. أليس من الأفضل أن ننســى، فقد قيل إن في النسيان فضيله.

ـ ولكن زلة الآمس خطأ فادح سيظل راسخاً في أعمـــاقي ...

واندفعت نحوها وأحطها بـــذراعي، وأخـــذت أقبلهـــا وأُلاطفها، وأطلب منا الصفح، حتى اكتسى وجههـــا بتلـــك الابتسامة التي تقرأ من خلالها طيبة قلب الآم، وتحسُّ بدفء حنانها .فكبر علي غضبها وتحملها مزيـــداً مـــن الأســـى، فشعرت بالرغبة للإعتذار منها، وإعلان التوبة بين يـــديها عن مخالفة أوامرها. وساءني ما ذهبت إليـــه نفســـي مـــن العصيان ! فكيف يطيب لي الجلوس إليها كل صباح بهـــذا القلب الناكر للجميل، الذي تخلى عن الورع والطيب؟ ؟

على أن نفسي لم تتحرر من الضيق الذي لازمها منـــذ ليلة أمس، ولم يرحمني الندم لما أصابني من إحباط وخيبـــة أمل. فأردت أن أخالف الرأي الذي استقر في أعماقي كي أسعدها، لأن بعض القلوب تحتوي كنـــوزاً، ينفـــق منهـــا أصحابها ليسعدوا غيرهم، فلماذا لا يكون قلبي واحد منها ؟

كنت كمن تخرج مــن معركــة خاســرة ،أجبرتهــا الظروف على خوض غمارها دون استعداد، كــان العــرق يبلل كل جزءٍ من جسدي، والجهد يرهقني ويضعف قواي. فبدا وجهي أمام المرءة ذابلاً أصفر اللون، لا أكــاد أُتميــز ملامحه التي اعتدتها كلما وقفت أمام المرآة – وكثيراً مــا وقفت– ودوامة كبيرة من الإبهام والغموض كانت تحــيط بي .

فِكر مشتت لا أعرف إلى أين يذهب بخيالي .... وأمام كل هذه الأشياء، لم يكن بمقدوري تبيان حقيقة شــعوري . حيث أن من أعز رغبات الإنسان، الخروج من الامتحــان ناجحاً تعلو ثغره ابتسامة الفوز، وإن كانــت رغبتــه ـــــ الخاصةــ تأتي عكس ما يتمنى الأخرون عندما يصــبح الفشل الذي يريده رغبة...

بعد ذلك تبدأ المعاناة، ويبدأ اللوم، ويشتد العتاب،ثم يأتي دور الندم،فيمتلأ القلب حزناً وألماً... كما حدث معــي فــي هذه التجربة التي أردت أن يكون الفشل نهايتها... فلــيس

من العيب الاعتراف بأنني دُهشت بالنتيجة التي أحببتهـــا، فكان شعوري بالإحباط أكثر من سعادتي بالفوز.

كانت تلك أول مرة أعرف فيها طعم الفشل الذي أردته لنفسي، راضية عنه كل الرضى . لقد خطفتني هذه التجربة من أفكاري التي رسمت مـــن خلالهـــا معـــالم مســـتقبلي، فوجدتني كأنما أعيش في دنيا كانت زاخرة بمظاهر الروعة والجمال، فإذا بها تصبح زاخرة بأشباح مرعبة مخيفة .

وعلى الرغم من ذلك الألم الدفين في أعمـــاقي، فـــإن الفرحة دفعتني إلى غرفتي، وأنا أُدندن بأغنيـــةٍ لا أعـــرف أخرها من أولها، ثم خرجت من البيت ،وسرت على غيـــر هدى، فشعرت أنني بحاجة إلـــى التســـكع فـــي الطرقـــات ،والضياع في ضجة الشوارع وزحامها . وكاد الفرح يجعل مني طائراً يحلق في السماء، ينظر إلـــى النـــاس ويراقـــب حركاتهم .

لقد تحررت من قيد أوشك أن يكون غِلاً يكبل معصمي إلى الأبد، ورحل الضباب الرمادي عن نـــاظري . إننـــي

أبصر الناس وأحصي عليهم تصرفاتهم، حتـــى أصـــواتهم تحولت في أُذني ألحاناً عذبة تدغدغ عواطفي وتبهج نفسي .

وعندما عدت إلى البيت كنت راضية عما حـــدث ... ويومها سمعت من والدتي كلمات كانـــت ترســـم صـــوراً لمستقبل غامض، سوداوي الملامح . كانت كلماتها تعويضاً عن فشل مُنيت به من أعزّ الناس .... ولكن بصيص الأمل كان دائماً يبدو واضحاً أمامي، وضوح الشمس فـــي كبـــد السماء حتى ولو كان اليأس يحتل المساحة الأوسع في قلب والدتي . فقد أصبحت هذه الرؤيا أمراً طبيعياً لأنني أنظـــر للحياة بمنظار مختلف...

لقد كان ذلك الموقف، ولا زال من الذكريات المختزنة في ذاكرتي، أبكي تأثراً على نفسي ،كلما طاف بخيـــالي . لأنني أذكر معه والدتي التي عاشت عمرها –ولا تـــزال – تعارك الأيام وتدفع عن ابنتها الوحيدة كل ضيم، وتوفر لها سبل العيش، سهلة مريحة على حساب سعادتها

ومع أنني تفوقت في كلية الطب ،وتغيرت كثير من المفاهيم، إلا أن أمل والدتي لم يتغير، فلا زال أملها أن تزوج ابنتها كي تطمئن عليها ويرتاح بالها . أليست هذه رسالة بنات حواء؟

وكثيراً ما كنت أشك في نفسي، فهل كنت فتاة مشاكسة تفتعل المشاكل من لا شيء ؟ فتصر على رأيها ولا تجد وسيلة للدفاع عنه إلا بالدموع ... إذ يحلو لها أن تكون زعيمة المعارضة في البيت، كما كان يحلو لوالدتي أن تلصق بي هذا الوصف.

لا ليس هذا سبب مقنع . بل إن الحقيقة التي اقتنعت بها، ويجب أن يعرفها الناس جميعاً أن والدتي نسيت أن ابنتها لا تخلو من الطموح، وأنها تطالب بتحقيق ذاتها كإنسانة تريد أن تحيا بهامة مرفوعة وكرامة محفوظة ،بعيدة عن تحقيق رغبات الآخرين، تبحث عن صدر رحيمة مفعمة بالعطف مشحونة بشوق اللقاء... تلجأ إليها في ساعات

الشدة، فتكون لها سلوى في ساعات الغضب، وترسم على وجهها هالة من البِشر والفرح في أوقات الحزن ...

ومر بذاكرتي طيف أبي، فقد ذقت الحرمان بعد وفاته، ومارست فقدان الحنان الأبوي . تذكرت أحد أيام الشتاء الماطرة، عندما عدت من المدرسة إلى البيت وقد ابتلت ملابسي، وكاد البرد يجمد أطرافي، فأخذني قرب المدفأة،وساعدني في تبديل الملابس المبتلة، وألقى علي مزيداً من الثياب، وأخذ يفرك أصابعي الباردة ليشحنها بدفء يديه. .فكم كنت حنوناً يا والدي !

تذكرت ذلك اليوم ،فكم وددت أن يكون والدي على قيد الحياة فألجأ إليه، ينصحني ويرشدني ويكون هو صاحب الرأي .

فلو كان حاضراً عندما جاء العريس وزمرته وسألني السؤال التقليدي :

ــ ما رأيك يا ابنتي ؟

فهل كان خجلي وصمتي علامة القبول ؟

فيقول والدي : مبروك .ويطبــع قبلــة علــى جبينــي ،وتنحدر دموع الفرح من عينيه . لا أظن أن حدوث هــذا الأمر قد تم آنذك بهذه السهولة !

فبكيت وتمنيت أن أبكي طويلاً حتى تغسل الدموع ما علق في ذاكرتي من رواسب ذلك اللقاء، رغم أن السنوات الطوال علمتني أن بكاءالمرءة ضعف .. فبحثت عن أسباب تنتشلني مما أنا فيه من العذاب ،فلم أجد غير الكتاب، الذي تحيرني ألغازه ،فدفنت رأسي بين صفحاته...

ـ ٤ ـ

كنت أحب أيام العطل لأنها تشعرني براحـــة تشـــبه استراحة المحارب، فأقضي معظم وقتي في البيت، يحتويني الكسل، وقلما كنت اُغادر البيت مع أحد . وأذكر أن والدتي طلبت إلي ذات مرة الخروج معها لقضـــاء حاجـــة ملحـــة فارتديت ملابسي على عجل، وربطـــت شـــعري بمنـــديل أبيض، وألقيت على كتفي معطفي الأسود .وخرجت معهـــا دون أن أقف أمامالمرءة كما كنت أفعل كلما خرجـــت مـــن البيت .

ذهبت والدتي إلى أحد المحلات التجارية ، فلم يكن في الآمر غرابة، ولكن الدهشة أخذتني عندما وقفـــت والـــدتي تتحدث مع شاب في مقتبل العمر،جميـــل الطلعـــة .جلـــب انتباهي حسن تأنقه وبراعته في تناسق الألـــوان واختيـــار الملابس التي يرتديها، وشدني إليه لباقته في الحديث، لدرجة خيل إلي أنني أعرف هذه الشاب معرفة جيدة، وغاب عـــن بالي أن كثيراً من الناس ربما يعرفونه أكثر مني، لأنه لـــم

يكن سوى أحد مذيعي التلفاز الذين يدخلون البيـــوت بـــدون استئذان ...

لمت ذاكرتي لأنها تخلت عني، وسخرت من نفســـي لأنها فقدت القدرة على التمييز ،وعندما سألت والدتي عـــن سبب ذلك الحديث ،كان جوابها أغرب مـــن ســـؤالي ولا يحتوي على تفسير مقنع أو كلام يشفي الغليل...

ثم انشغلت عني وتعلقت بالحديث مع امرأة لا أذكـــر أنني رأيتها منذ سنوات، فكان ذلك سبباً لغياب شكلها عـــن ذاكرتي . قالت والدتي بدهشة وتعجب :

ــ صفيه ! ماذا فعلت بنفســـك ؟ النـــاس يكبـــرون وأنـــت تصغرين!

ضحكت المرءة بزهو وافتخار وقالت:

ــ لا شيء . فأنا كما ترين .

واستدارتالمرءة حول نفسها تعرض مفاتن جسـدها . وما زالت دواعي الإستفسار والتعجب عند والدتي تبحثـان عن متنفس، فعاجلتها بسؤال آخر :

ــ متى قصصت شعرك ؟ إنه الآن أجمل !

عجبت لوالدتي من هذا الإثراء والإعجاب . فنظـرت إليها راجية منها التوقف عن شحنالمرءة بشحنات الغـرور والكبرياء .ولكنها لم تعر نظراتي اهتماماً. فلم أجرؤ علـى الإلتفات إليها مرة ثانية ،ولكن ذلك لم يمنع استنكاري لهـذا الموقف.

وفي طريق العودة إلى البيت حاولت اظهار بعـض اللوم . وكأنها أرادت أن تغلق باب الحديث، فقالت :

ــ لا داعي للعتاب واللوم . كان مجرد حديث بين امـرأتين جمعت بينهما الصدفة بعد سنوات .

عدنا إلى البيت وكأن الهدف من الخروج مقابلة ذلـك الشاب والتحدث مع هذه المرأة .

لقد أصبحت أميل إلى الهدوء، وأمل صحبة النـــاس، وأصبح الفراغ وقتاً للتأمل بأشياء تأخذ حيزاً من تفكيـــري، دون استمرار الرغبة للميل في هدر مزيد من الوقت بـــدون فائدة، على الرغم من أن أوقات الهدوء والإسترخاء كانـــت تُذهب عني شتات الفكر وتمنعني من التحليق فوق الغيوم. فما زالت بعض الأحداث تمر بخاطري مع أنها أصبحت من مخلفات العصر البائد، ورغم تقادم الأيام عليها فلا زالـــت تشغل حيزاً من ذهني، ولا زال ذكر العريس يحدث شـــرخاً في خيالي .

فهل ابتدأت أفكر بالحب ؟

أم إن غيرة الأنثى سلوك غريزي لدى بنات حواء ؟

فلن أستطيع الانفصال عن مـــا يـــدور فـــي الحـــرم الجامعي، ولن يكون بمقدوري أن أصم إذناي عن حكـــاوي البنات الغرامية، أو غض الطرف عن محـــاولات جـــري الطلاب خلف الطالبات . فمن غيـــر هـــذتين الظـــاهرتين تكون الجامعة قد فقدت نصف وظيفتها...

لقد تحديت والدتي في قرارة نفسي لأثبت أنني قادرة على الرفض.فأنا على يقين بأنني لست ضعيفة ولست بضاعة رخيصة تنتقل لحيازة أول من يطرق الباب، إذا كان لديه القدرة على دفع الثمن...

لقد شعرت بالإحباط وأنا أعترف أمام نفسي بخسارة الجولة الأولى . فهي تجربة ظننتها ذهبت أدراج الرياح، فإذا بها ما زالت غصة في حلقي. وها أنا اليوم، أجلس إلى نفسي أخشى أن يخيب أملي، وأن تتلاشى من رأسي صورتي وأنا أرتدي المريلة البيضاء، واضع السماعة حول عنقي، جالسة إلى مكتبي الأنيق أستقبل المرضى ..

أخشى أن لا يتحقق ذلك الأمل، وأن تضيع السماعة قبل أن أضعها حول عنقي، فلا تظهر الصورة على حقيقتها، لأنني ما زلت في منتصف الطريق، وأمامي رتل من الكتب والمراجع، وفي نهاية الطريق حواجز من الاختبارات ليس من السهل اجتيازها ....

إنه لأمر صعب جداً، فيا ليتني قبلت تنفيـذ رغبـة والدتي، وحققت لها ذلك الأمل، لو قبلت ذلك العرض لمـا كنت الآن أحدق في سطور هذا الكتاب الذي يكاد يقهرنـي، ويخيب أملي .

إن من أهم مشـاكلنا يـا سـيدي، هـي أن بعـض الأشخاص يرون أن في الحياة ضرورات تحول المصاعب دائماُ دون تحقيقها، فيجـدون ويجتهـدون، فـلا تـزول المصاعب ،ولا تتحقق الضرورات، فتمتلئ الـنفس كآبـة، وتطغى على القلب موجة من الحزن .

كنت أحس أن صدري تخنقه هذه المصاعب، وينوء بأحمال ثقيلة، لأن ذاكرتي يعز عليها نسيان الماضي . فـلا تزال تنشر أمام ناظري، ما تدخره من ذكريات لا أحب أن تجول بخاطري. فإنها من الأشياء التي لم تكن حبيبة إلى قلبي، وليست من الذكريات التي يهفو إليها الفؤاد بعد أمـد بعيد .

فما أشبهني بذلك العائد إلى بيت مضى على هجرانه زمناً طويلا عله يقرأ على جدرانه كلمة كتبها، أو يعثر بين أطلاله على أثر يغمر نفسه فرحاً ويــذكره بأيـام طفولتـه الجميلة.

لا أدري كيف مرت ساعات تلك الليلة، فلا بـد أنهـا كانت ساعات طويلة، مملة ،كابدت خلالها الكثير، وعانيت ما عانيت ،ولكنني استمتعت في تلك الليلـة بسـماع لحـنٍ عذبٍ،تخيلته نوراً يتلألأ في نهايـة نفـق مظلـم فيضـيء الطريق أمامي، فلا أضل ولا تكون نهايتي إلى هلاك ...

فأحببت لو أن هذا النغم الحالم يصاحبني ولا يتخلـى عني . فوجدت نفسي ــ هذه النفس ــ التي كانت ضـعيفة أمام الواقع، جبانة من توقعات المسـتقبل . وجـدتها فـي الصباح غير ما كانت عليه في أثناء الليل . كنـت أشـعر بالحيوية والنشاط يتدفقان من جسدي وكأنني ما نمت ليلـي وشبح الخيبة والفشل يسدان دوني شتى الطرق

وتمضي الأيام التي نشكو همومها كثيراً، ونعيش حياتنا وشتى أنواع المعاناة تسد أمامنا المنافذ والطرقات، ولكننا رغم كل شيء صعب ومرهق، نسير يحدونا الأمل ويشحذ همتنا العزم. مع أن الوهن واليأس يسيران على هامش حياتنا، يتربصان بنا أوقات الضعف، حتى نقع فريسة لهما...

فما أصعب الوقوع في هاوية اليأس، حينها لن يجد الإنسان نفسه إلا فريسة سهلة المنال، يتناوشها الطامعون، ويتلذذ بهوانها الشامتون ... ومن أجل ذلك ما كنت يوماً لأسمح بأن تكون نفسي تلك الفريسة، وإلا هانت علي عزتي وكرامتي وسهل علي السير بين الناس برأس لا تعرف معنى الشموخ ...

كنت بحاجة لشيء من الإرادة كي تصاحبني ولا تتخلى عني في ساعة الشدة، فيشتد ساعدي ويرحل من داخلي الضعف ،كي لا أظل جبانة أخشى توقعات المستقبل، متقوقعة على نفسي ،لا أشعر بالحيوية والنشاط، بل أمضي

الوقت منتظرة على هوامش الخيبة والفشل، أشــكو همــوم الأيام ومعاناة مآسيها.

فالجد ،ما خُلق إلا لأمثالي، والاستقامة، ما عرفتُ في حياتي غير طريقها .... كنت كالطائر الغريب، أقف دائمــاً على الشاطئ البعيد، فإذا ما اقترب أحد مني، تماديت فــي البعد، فالناس كلهم غرباء عني، إذ ليس من السهل أن تأمن جانب الغريب، إلا إذا عرفته وجربته وأمنت جانبه، ومــن أين لي جرأة الاقتراب من الناس، وحتى إذا مــا اقتربــت منهم، فهل أنا مؤهلة لاختبارهم وتصنيفهم ...

فلم تكن لدي خبرة بالحياة، ولم أخرج عــن دائــرة ضيقة وضعت نفسي داخل حدودها، وفي ذلك يكمن الســر الذي استحال سداً من الوهم ،جعلني أخشى النــاس ويمــلأ صدري خوفا وحذراً منهم ،فقد علمتني والــدتي أن النــاس ليسوا كما نظن ونحسب، بل إن كثيراً منهم ذئاب تعيش في ثياب البشر .

فليس مـــن الضـــروري أن تكـــون آراء الآخـــرين صحيحة، فكثيراً ما يجانبها الصواب .فقد أحببت أن أحتفظ بأحداث حياتي، ولا أريد الهرب من أمر شق علي تحمـــل نتائجه، في وقت لا أستطيع إهمـــال آراء والـــدتي ، أو أحتقر أفكار الأخرين . لأن حياتي بدونها ليس لها فائـــدة، فنحن توأمان يتنفسان بأنف واحدة.

أعترف بأنني كنت دائماً مأخوذاً بسحر بيانها، وروعة تدبيرها، فهي المثل والقدوة ،والقول الفصل في جميع أمور حياتي، فلا يغيب عنها شيء من تفاصيل أعمال اليوم لا في البيت ولا في الجامعة، وكأن الجلوس من أجل تناول طعام الغداء كان الهدف منه تقديم هذا البيان الشـــامل، ولإتاحـــة الفرصة أمامها للتحدث عن سعادة البيت والإستقرار العائلي إلى أن تصل إلى الحديث عن الزوج والأولاد ... ولتكرار هذه المقولة في كل يوم، دفعتني مسألة الزواج للبحث عـــن مبرر يجعل الظل ينفصل عن الأصل ...

لقد فهمـــت المعلومـــة التـــي أحبـــت زرعهـــا فـــي وجداني،فابتسمت ابتسامة طمأنتها وقلت :

ــ لاشيء يستدعي تكرار هذا الحديث يا والدتي .

قالت: ــ لا تنسي أننـــي أم ،ومـــن واجـــب الأم النصـــح والإرشاد.

توقفت عن الحديث رغبة في عدم اســـتمرار النقـــاش .وفي الحقيقة أردت البكاء على الأيـــام الماضـــية . قبـــل بلوغي سن الزواج، كانت أياماً رغيـــدة لا يكـــدرها علينـــا عريس أو مكدر . أما اليوم فحديث والدتي يملـــؤني خوفـــاً وقلقاً .

وكأنها فطنت للهدوء الذي ساد الغرفة فقالت :

ــ لا عليك . إنه مجرد كلام .

فجرت على شفتي شبه ابتسامة لكلامهـــا المشـــحون بالألغاز .

فلم تراودني نفسي بأن أكون ناقمة عليها في يوم من الأيام . ولكن شيئاً من العتاب عرف طريقه إلينا وأصبح ينمو بيننا، رغم أنني أعرف أنها نبع الحنان الذي يرنو إليه الظمآن بنهم وشهية. فنحن لا نفتأ نطالبها بالعطف ما دامت الأمومة رمز تقدسه الأديان وتحترمه جميع الأطياف...

عندما طرأت هذه الأفكار على بالي، انتابني شعور بنكران الجميل. لأنني قطعة من والدتي . فاشتد ألم الحيرة في جسدي، واندفعت الدموع تلهب وجنتاي، فتأكدت أنني انحدر في طريق خاطئ يتمادى في خلق هوة الخلاف بيني وبين والدتي التي لم يكن لها وجود أصلاً . فعدت أدراجي أحتمي بأحضانها ،عاتباً على نفسي، ناقماً على أفكاري،فأصبحت أشد تعلقاً بها وأكثر إصغاءً لقولها، حريصة على التفكير كثيراً قبل اتخاذ أي قرار .

- ٥ -

كان في ترددي على المقهى مزايا خليقة بأن تـــذهب عني المخاوف، وإن لم تقلل من أسباب نفـــوري وابتعـــادي عن بعض زملاء الدراسة، فإنها أدخلت في قلبيشيءاً مـــن التآنس الذي يلقي ظلاله على رواد المقهى . وهي خطـــوة قللت من أثر الفشل،الذي مُنيت به نفسي هذا اليوم ، عندما رفض أحد الدكاترة بحثي وأسمعني بعض الكلمات الجافـــة التي لم تلق القبول عندي . فلمت نفسي وحمّلتها نتائج ما حدث، رغم أنشيءاً في داخلي يرفض كثيراً ممـــا أقـــدمت عليه، ويتهمني بعدم التروي وعدم التفكير قبل بلـــوغ خـــط النهاية.

أمضيت بعـــض الوقـــت متســـكعاً فـــي الشـــوارع والطرقات،ينتابني الشعور بالخزي والخجل، وكأن النـــاس جميعاً شهدوا ما حدث معي في مدرج الكليـــة هـــذا اليـــوم وسمعوا كلمات الدكتور الجارحة، ولاحظوا تعليقات بعـــض الطلبة ...

رجعت إلى البيت متظاهرة بالمرح كي أبعد الشك عن والدتي، وقد نجحت في تقمص دور المهرج هـــذه المـــرة، رغم أنني عدت إلى البيت بنفس أسيرة الإحباط ، فوجـــدت أمي تلف جسدها بمعطف شتوي، وقد بدت ملامحها هادئـــة جميلة يكللها الوقار، ويحيط بعينيها الخضراوين بريـــق لا يخلو من الحزن ،ترتسم على جبينها خيوط تعـــودت عـــدم رؤيتها في حالات الهدوء، بل كان ظهورها مؤشراً للإنفعال ودلالة على تقدمها في السن...

إنني أستطيع قراءة أفكارها . لأن قلبي يرقص شغفاً لحنانها ،ولكني شعرت بوخز الضمير لما بدا مني، فكبـــر علي عصيانها وشق علي أن أكون سبباً في عذابها، فتقدمت

منها وطبعت قبلة على جبينها ثم دفنت رأسي بين أحضانها.
فقد ثبت في أعماقي أنني لم أجرب عذاب ضمير الأم، ولم أعرف معنى الحيرة التي تتعكس صراعاً يدمر هدوء نفسها...

فمهما طال بي العمر فلن أنسى صورتها الحزينة، التي انطبعت في مخيلتي، وشخصيتها المتزنة التي أحببتها. إلا أن ترنح قلبي لهفةً عليها، أشعرني بالعجز والقهر، فبلغ التأثر مداه، فلم أستطع منع تساقط الدموع من عيني ،

إنها بلا شك دموع مؤجلة، فكأنها تقف على أهبة الاستعداد . فاستسلمت للبكاء مخفية وجهي بين أحضانها فداهمني شعور بالإرتياح أزال عني توتر الأعصاب، وأذهب عني الصراع مع الذات، وغمرتني موجة من السعادة دفعتني بقوة لأطبع قبلة حارة على جبينها أفرغت فيها كل مشاعر الحب والتقدير،وقدمت من خلالها مراسم الطاعة والوفاء لأعظم أم.

وخفف عني حنانها الكثير مما أعاني، فما أتفه الحيـــاة عندما لا نسيطر على الأفكار التي نزرعها بعقولنـــا، فـــلا نستطيع الراحة من هذا العناء الذي تقذفنا بـــه الأيـــام بـــلا رحمة فلا نكون قادرين على تخطي العثرات التـــي تمـــلأ الطرقات تحت أقدامنا...

حاسبت نفسي على فعلتي فشعرت بالندم، فقد كنت مرهقة الجسم، تلهب جسدي عواطـــف مثخنـــة الجـــراح . أعترف بأنني كنت أنانية في جميع تصرفاتي، فقد منحتنـــي الظروف فرصة أرد بها الجميل، لهذهالمرءة الصابرة التي لا تعرف غير العطاء والتضحية، مـــن غيـــر أن تنتظـــر الجزاء من أحد.

كان الظلام يزحف بهدوء من تحت أقدام الأفق، بينما كان القمر يلملم بقايا نوره الواهي، كي ينثره على عالم آخر ينتظره بفارغ الصبر. وكنت وحيدة يكاد الضجر يغرقنـــي بأفكار سخيفة، تجعل الوحدة تحاصرني وتعزلني عن عـــالم الأحياء...

استيقظت في الصباح، تحيط بي هالـــة مـــن القلـــق والارتباك، كانت علامـــات الاســـتفهام لا تفـــارقني أبـــداً، والحيرة تتراقص أمام ناظري . تأملـــت غرفتـــي وكـــأنني غريب عنها ،فلم أتعرف على السرير الذي لازمني سنوات طويلة، ولم أميز ستائر غرفتي التي احترت فـــي اختيـــار ألوانها حتىالمرءة التي لا أغادر الغرفـــة إلا بعـــد وقفـــة طويلة أمامها ،لم ألاحظها أيضاً، كل شيء في هذه الغرفة يثير عجبي وتلاحقني حيرتي بإصرار، فلا بد من الهرب والتخلص منها ، والنجاة من علامات الإستفهام التي تنتشر فيها ...

غسلت وجهي بماء بارد وارتديت ثيابي، ثم خرجـــت من البيت صباحاً، بعد ليلة ليست كغيرهـــا مـــن الليـــالي . وسرت على غير هدى، مندفعة بين الناس ،أصـــطدم بهـــم دون ملاحظة هذا التصرف. فلا زال أمامي متســـع مـــن الوقت قبل الذهاب إلى الجامعة. فغرقت في التفكير الـــذي أصبح وظيفة مملة تلاحقني أينما ذهبت. وكرهت ما أجبـــر

نفسي عليه من تصرف قد يبدو غيـــر لائــق فـــي بعــض الأحيان.

فلم يفارق خيالي الموقف الذي تعرضت إليـــه يـــوم أمس،فأوقعني في الحيرة بين إخفاء الأمر عن والدتي ومـــا اُلاقيه الآن من صراع نفسي لا أستطيع تجـــاوزه أو حتـــى نسيانه .

فلو أنني أبلغت والدتي بما حدث، لوجدت عندها مـــا تهون به على نفسي من كلمات لطيفة ودعوات طيبه ... ثم إن هذه الأحداث ليست خليقة بتكـــرار ذكرهـــا وإلا كـــان التفكير بالأشياء الأخرى أكثر اهتماماً وأجدر بالمتابعة .

وشطت بي الأفكار حتى وصلت بي إلـــى المـــوت . فظننت أنني لن أستطيع الاستمرار في الحياة، ولن أُقدم على الإنتحار طبعا لأنني رغم جميع الأفكار التي أتبناها وأمارس معطياتها، فلا يزال الإيمان يعمر قلبي فأعلم أن الإنتحـــار جبن ومعصية للخالق . ومن الصعب استمرار العيش على

مثل هذا النمط المثالي الذي بني فوق سد من غرور .ويخفي بين طياته الخيبة وقلة الحيلة.

فقد أصبحت أميل إلى الوحـــدة وأعشـــق الهـــدوء ،وتشتبك أمامي خيوط من اليأس والأمل فأجلس كـــل يـــوم أحدق بالكراسي والطاولات، التي وضعت بعناية وترتيـــب جيد على رصيف أحدى مقاهي الجامعة، حيث يحلو للشباب والشابات اللقاء قبل بدء مشوار الدراسة اليومي.

كنت وحيدة أبحث بشغف عن شخص مـــا، يجلـــس أمامي، يشاركني الحديث، يطرد السأم والملل مـــن رأســـي المثقلة بأفكار غريبة ،وأتبادل معه أطراف الحـــديث بـــأي موضوع أو أي اسلوب.

توقفت أمامي فتاة صغيرة تحمل باقات من الورد ،لا يزيد عدد الواحدة منها عن ثلاث أو أربع وردات محاولـــة اقناعي بالشراء.قالت:ـــ

ـــ اشتر واحدة لصديقك أو لحبيبك .

ضحكت وقلت:

ــ وإذا لم يكن عندي صديق أو حبيب .

قالت ببراءة الطفولة :

ــ إذاً تشترينها لوالدتك.

كادت تقنعني بهذا العرض ،ولكن كيف أحتفظ بالورد طوال النهار ؟ غير أنني صممت في قرارة نفسي على مساعدتها ،فقلت:

ــ ما رأيك لو دفعت لك الثمن الآن على أن تحتفظين بالورد معك لوقت أخر ؟

دُهشت الفتاة بالعرض ،ومدت يدها لتضع الباقة على الطاولة ،

ولكنها تداركت الموقف فقالت بأنفة وكبرياء :

ــ أشكرك يا آنسة، فأنا لست متسولة .

ثم انصرفت وأنا مأخوذة باعتزازها بكرامتها .

وعبثاً حاولت الإعتذار ،ولكنها أصمت أذنيها وابتعدت عني. فاسترعى انتباهي انفراده في الزاوية وحيداً مثلي، لا يجاري الأخرين بالضحك، وليس أمامه أحد يثرثــر معــه بكلام فارغ ،ولم يشارك بعــض الطلبــة علــى الطاولــة المجاورة التخطيط لسهرة في عطلة نهاية الأسبوع. بل كان دخان سيجارته يتصاعد بخيوط لولبية بين الفينة والأخــرى معلناً عن مدى العصبية والضيق .

هذه أول مرة أراه يجلس في المقهى ،وعهــدي بــه يسير وحيداً في ساحات الكلية أو يتخذ له مقعداً تحت ظــل شجرة ينعم بالوحدة والهدوء .

رأيته في هذه المرة يسترق النظر لتلك الفتــاة التــي تجلس وحيدة مثلي .إنها فتاة عادية، ليس فيها مــا يجلــب الإنتباه، ولكنني لا أستطيع رسم هذا الإنطباع على وجــوه الحاضرين. وليس بمقدوري إقناعهم بأنها ليست جذابــه . وزاد من حقدي عليها أنه ليس بمقدوري اقنــاع الآخــرين بوجهة نظري بها .

إنه ينظر إليها بنهم ،ويهمل فنجـــان القهـــوة أمامـــه، ربما كان معجباً بفستانها العادي، الذي ترتديه كثيـــر مـــن طالبات الجامعة هذه الأيام ،دون أن يكون له أثر مميز ...

واجتاحتني رغبة عارمة لتحقيق أمل يضطرب فـــي داخلي، وثمة شيء أتمناه . فهل يدعوني للجلوس إليه على نفس الطاولة ؟

لا شك أن السرور سوف يملأ صدري ولـــن يكـــون عندي احتمال للخوف ... فما أحوجني لهذه الدعوة للتخلص من شبح الوحدة وطرد الغيرة التي ترعى فؤادي .

فأنا أعرف بأنني محرومة من نظرات تشبه نظرات هذا الشاب، لأنني وحيدة رغم أنني أكره الوحدة، فيكفينـــي منه نظرة واحدة تزرع الأمل في نفسي التي كاد الإحبـــاط يقتلها .

لا أقر بأن هذه الفتاة أجمل مني، وإنما أجزم بـــأنني أحسنت اختيار ملابسي، أكثر منها في هذا اليـــوم، فلمـــاذا يهملني هذا الشاب ويتجه بنظره إليها ؟

ودبت الغيرة العمياء في أوصالي . فكيف أشعره بأنني بحاجة إليه أكثر من حاجتة لتلك الفتاة التي تهمله ؟

فليت تلك الفتاة تغادر المقهى وتتركه وحيداً ،يقاسي مرارة الوحدة مثلي . تلك كانت رغبتي الحاقدة عليه. ليتني أجرؤ على ترك مقعدي والذهاب إليه، والجلوس على طاولته، فأبدأ الحديث معه دون اهتمام للعادات والتقاليد . فأنا لا أرى فرقاً إن بدأ الحديث بيننا من جانبه أو كنت أنا البادئة ...

في بعض دول جنوب شرق أسيا مثلاً تذهب الفتاة لخطبة الشاب وتتحمل الجزء الأكبر من المهر وتجهيز البيت.. أما نحن فتلازم الفتاة البيت حتى يأتي من يخطبها سواء كان غريباً او قريباً، فيطرق الباب ليجد الوجوه الباسمة ترحب به وتبدي له من أسباب القبول ما يفرحه ويملأ قلبه زهواً وارتياحاً.

مكثت بعض الوقت جامدة في مكاني، تشغلني هذه الأفكار، فاشتد عذاب الغيرة في جسدي، فلا تزال عيناي

تحفران آثارهما على وجهه . ولاحت منه التفاتة وهو يحتسي القهوة، فالتقت العيون وسرت بجسدي رعشة . فكأنما أصبت بدوار عنيف، فتصاعد الدم إلى وجهي متدفقاً ثائراً ،فأغرقني في بحر من الحياء والخجل .

لا أنكر بأنني دُهشت بجمود نظراته ،التي قد لا تعنِ شيئاً ،ولكنها تحمل في طياتها الذعر أو الهرب من شيء، وإلا لماذا لم يسترح نظره على جسدي كما يفعل الشباب، عندما تقع أعينهم على وجه فتاة لأول مرة ؟ ولماذا لم يشر إلي بيده تحية وترحيباً ألسنا طلاباً في فصل دراسي واحد ؟

فكرت في الأمر، فلا فائدة من الاستمرار في معركة الغيرة التي اشتعل أوارها في جسدي ،فعزّ علي أن تهزمني الظنون والخواطر، فأبت نفسي التراجع بنتيجة يحسمها عدم التوفيق ،وهو صديق يلازمني ولا يتخلى عني .

شعرت أن مطرقة ثقيلة تهوي على رأسي، وأن رغبة منه تناديني بصمت، فلا أدري لماذا لم أجرؤ على الاقتراب منه، فهذا الشاب غريب ولا يربطني به حديث في وقت

سابق، ولم يكن بيننا مواعيد في يوم من الأيام ،ولم تبـد منه استجابة حتى عندما خُيل إلي أنني ابتسمت له ...

تلفت حولي أراقب رواد المقهى ،خشية أن يكون بينهم من يراقبني. فهالني جمود نظراتهم، وسكون حركاتهم .فلا تسمع كلاماً ولا تلمح ابتسامات متبادلة، ولا تلعلع قهقهـات الضحك في آذان الجميع ...

فكثيرون منهم مشغولون بقراءة ما بين أيديهم من كتب أو صحف أو مجلات ... وربما كان بعضهم ساهم بتفكيره بعد رشفة من فنجان القهوة ....وقد عهدت هذا المكان يعج بكثرة الزوار فلم أجد في هذا اليومشيءاً سوى الهدوء الذي دفعني للتساؤل والإستفسار !

ما زال فكري مشغولا به، والقلق ينام تحت أجفاني . إنني أرفض نظرة اللامبالاة التي منّ بها علي . لقد اكتفـى بتلك النظرة العابرة ليقضي على الملـل الـذي يصـارع صبري ويقهر قلة احتمالي. حيث يحتل الفضـول مسـاحة واسعة عندي. فلن أدعه يرحل عن بالي، بل سوف أتـابع

بريق الحزن الذي يشع في عينيه، وأبحث عن أسباب الحرمان الذي يبدو عليه...

فأنا لست مراهقة تعشق في هذا الشاب جسداً أو يغريها فيه مظهراً أو يجذبها إليه خفة الروح، فتتمنى قربه لتحقيق رغبة سخيفة ...

ثم تساءلت والكلمات الخجلى تداعب شفتي : لماذا لا يرحمني ويرأف بحالة ؟ لماذا لا يتقرب مني ما دامت الرغبة حق لنا في هذه الحياة ؟

ثم تراجعت عن هذه الفكرة الغريبة التي أفرزت سؤالاً محيراً زاد الأمور غموضاً :

وهل أصبحت الرغبة عندي حباً ؟؟؟

إنني أسمو فوق هذا التفكير ... فمن الظلم أن تحب شخصاً والمحب لا يشعر بوجودك، فقد يشغله الصراع بين الرغبة والعذاب، ويعصر جسده الألم...وأنت لاتستطيع تحديد الموقف الواضح أو تتخذ القرار الحاسم .

ومرة أخرى، تراجعت عن أفكاري السـخيفة التـي تحشرني في الزوايا الضيقة، وتنقلت بنظري بين الكراسـي ورواد المقهى، أسأل نفسي، ماذا تغير في هذا الشارع منـذ سنوات؟

لاشيء.ربما تغيرت أسماء المحلات التجارية وازداد عدد المطاعم وتبدلت لوحات الإعلانات ولكن الشـارع لا زال مثقل بالسيارات، والجامعة لا تزال جـدرانها ناصـعة البياض، والأشجار تتمايل أعصانها على جوانب الطرقات .

شيء واحد يجب أن يتغير . هـذا الضـجيج غيـر الحضاري الذي تحدثه سيارات الأجرة وهي تتسابق للفـوز براكب، فعندما أتابع هذه السيارات وهي تختـار راكبيهـا، فتهمل كبار السن وتتخطى أُماً تقف تحت أشعة الشمس مع أطفالها ليوقف السائق سيارته أمام فتاة ربما كان خروجها من البيت ليس بذي حاجة ملحة.

هذه المواقف تشعرني بعدم الارتياح والأسف ، لهـذا السلوك المزاجي الذي يتنافى مع وظيفـة تكسـي الأجـرة

الخدمية رتل من علامات الإستفهام فتثير من حولي الغموض الذي يسلبني إرادتي بلا رحمة، لأنني غير قادر على تغيير شيء من سلبيات هذه المواقف .

ـ ٦ ـ

انتصرت على نفسي وانتزعتها من محاولة البحـــث عن حلول لأمور غريبة في مجتمعنا . ولكنها مـــا زالـــت ظاهرات تستنجد بمن يجد لها الحل المناسب ... وأسرعت إلى الجامعة فقد كنت بحاجة لأحدالمراجع، فربما ساعدني الحظ فأستعيره قبل غيري .

دخلت المكتبة فوجـــدت الطـــلاب يتنـــاثرون علـــى الكراسي والطاولات، ينقبون عن المعرفة بـــين صـــفحات الكتب. لم أكترث لهذا المنظر ، فهو أمر بدهي تعود عليـــه كل طالب جامعي، ولم يثر في نفسي أي نوع من الذكريات، لأن التكرار يجعل الأمر عادياً جداً لا ينطوي على مزايـــا جلب الانتباه .

فهؤلاء الطلاب كغيرهم من الناس لا يعرفـــون مـــاذا فعلتُ مع الضيوف الذين حضروا إلى بيتنا يوماً ما من غير موعدٍ كالغزاة، ولا يعرفون نوع المعاناة التي عشـــتها، ولا يقدرون معنى الإحباط، الذي مُنيت به والدتي عندما غادروا

البيت، تعلو وجوههم ابتسامات صــفراء، تعلــن الــرفض وتبشر بعدم الرضا . كنت على يقــين أن هــؤلاء جميعــاً يجهلون ما حدث .

غادرت المكتبة بعد أن فشلت فــي العثــور علــى مطلبي وأسرعت الخطى كي أحجــز مقعــداً فــي قاعــة المحاضرات، حيث تكتظ القاعة في مثل هذا اليوم بأعــداد من طلاب كلية طب الأسنان الذين يشتركون معنا في بعض المواد. وما كدت أجلس على المقعد ،حتى زحفت علامــات الإستفهام تحاصرني من جديد... إننــي أمقــت علامــات الإستفهام التي اتخذت مني ملهاة لها تطرق أبواب فكــري كلما جلست وحيدة في أي مكان . فعبثاً حاولت الهرب منها ،فإذا عيناي تصطدمان به مرة ثانية، جالســاً فــي إحــدى الزوايا، وحيداً كأنه ما زال يتخذ الكرسي نفسه في المقهى.

لقد شاهدته في هذا المكان مرات عديــدة ،دون أن يكون لذلك تأثير يهز عواطفي أو يقربه من هوامش قلبــي ... فقد كنت أنظر إليه كغيره من الطلاب، وإن كان التفوق

يميزه عن ألآخرين، ولكن تلك النظرات لــم تكــن كافيــة للتعبير عن ميل أو رغبة .إلا أن الحب له سلطان .

أما الآن فقد تأكدت من نظراته الهاربة مني عنــدما لاحت منه التفاتة نحوي.ربما كان يراقبني كما كنت أراقب جميع رواد المقهى، وأن تحديقه بتلك الفتاة كان مدعاة لعدم جلب انتباهي إليه .

فلماذا لا يشفق علي ويرحم نفسه ؟

إنه يتحلى بصفات الرجل الذي سكن خيــالي، ومــا كنت أحسب بأنني سوف ألاقيه يوماً ما، لأنه كــان حلمــاً كالسراب، إذا تبعته هرب منك، وإن تجاهلته ضاعت عليك فرصة طال انتظارك لها ...

واسترحت عند هذه الأفكار وأمضيت أكثر من نصف المحاضرة وأنا أطير بخيالي فوق السحاب، أحلــق خلــف منطقة الأحلام، تمنحني السعادة جملة من الدوافع لتحقيــق شيء أشبه بالخيال الذي يلازم المرء ولا يتمنى فراقه . فقد

جرفني التفكير بهذا الشاب بعيداً عن المحاضرة، حتى كدت أنسى سبب وجودي في هذه القاعة .

أحسست بيد فوق كتفي، تنتشلني من إحساس لن تجد له تصنيفاً مناسباً، لأنه كالنسيم العليل الذي نحتاجه في ليلة اشتد حرها . فلم يضاقن الأسف على ضـياع المحاضـرة التي قاربت على الانتهاء، دون أن أسمع منها كلمة واحدة ، أو أعيشيءاً مما قيل فيها. ولم أحسب حساباً للتعب الـذي يقف لي بالمرصاد، حتى أجمع المعلومات التـي احتـوت عليها المحاضرة، بقدر الأحساس الجميل الـذي غمرنـي عندما وقف الدكتور إلى جانبي ويده على كتفي ...

أحسست بتلك اليد تعيدني إلى المحاضرة . فقد لاحظ المحاضر، شرود ذهني عن محاضرته، وعدم مشاركتي في النقاش، وقد عرف مني كثرة الأسئلة، فجاء يربـت علـى كتفي بلطف، ويسألني تفسيراً لذلك، دون أن يحظى بجواب.

كانت يده لا تزال على كتفي، ونظراتـه تنسـكب علي بحرارة كاللهب، تتفحصني بدقة كأنما يريد أن يعـرف

تفاصيل جسدي ... انصبغت وجنتاي بلون الدم . فارتبكت، وحاولت إخفاء ما بدا مني .

هذا المحاضـــر لا يهمنـــي أمـــره، إلا أن نظراتـــه الفاحصة تبعث الكبرياء في داخلي، وتشعرني بالغرور أمام زميلاتي، إذ لم يقف من إحداهن مثل هذه الوقفة، ولم يسبق له أن اقترب من فتاة ووضع يده على كتفها حتـــى يحمـــر وجهها خجلاً ... وانعقد لساني، فما تعودت الكذب واختلاق المعاذير ،وعلا في القاعة همس ماكر تعرفه من تعرضـــت لمثل هذه المواقف ...

نظرت حولي باهتمام شديد ،وأخـــذت أحـــدق فـــي الوجوه دون أن يجلب انتباهي أحد مـــنهم . وبـــدأ الخجـــل يتولاني حتى كدت أقع فاقدةً للوعي ... ورغم ذلـــك فقـــد اعتذرت منه بكلمات لم تقنعه، فطلب إليّ الحضور لمكتبه بعد انتهاء المحاضرة .

كان ذلك الدكتور شاباً وسيم الوجه، جميل المظهر، يفيض حيوية ونشاطاً ،لبق الحديث، ولعله لم ينس بعد، مـــا

تعلمه في جامعات أمريكا من نظريات السلوك الاجتماعي والتحليل النفسي، ودراسة المعقول واللامعقول، واستشفاف خفايا العقل الباطن، وغيرها من النظريات والأبحاث...

أو ربما أراد أن يعرف مدى تطبيق النظريات على الواقع . فقد كان يعامل الجميع وكأنه لم يكن الدكتور "بسام" الأستاذ في كلية الطب، وربما كان يبدو في مثل سن بعض طلبة الكلية لدرجة تشك معها أنه أستاذ في الجامعة .

فعندما تشاهده بين الطلبة، دون أن يحبس نفسه في حلة رسمية، وما يتبعها من رباط عنقٍ وحذاءٍ لامع، وربما وردة على الصدر ...بل كان لباسه من ذلك النوع العادي، أنيق الشكل، يحسن اختيار اللون المناسب، فتعرف أنه يصرف وقتاً كبيراً في انتقاء ملابسه ..

في الطريق إلى مكتبه، لم أتمكن من السير بخطى ثابتة ،فقد كنت نهباً لثوران أفكاري وغرقي في حيرة البحث عن أسباب تلك الدعوة . وفي الممرات الطويلة كانت

الجدران تزخر بكثير من اللوحات، فأخذت أنظر إليها بلهفة كأنني أرى مثل هذه اللوحات لأول مرة في حياتي .

حاولت أن أبدو غير متوترة، متزنة كي أفسح المجال للهدوء يتسرب إلى أعصابي... كانت تلك الأفكار تمر في ذاكرتي مر السحاب، . فالطلاب الذين ينشغلون عن متابعة المحاضرات كثيرون، والذين يجلسون في مدرجات الجامعة ويخرجون منها وكأنهم في عداد الغائبين، كثيرون أيضاً. ..

فلماذا لم يجلب أي منهم انتباه الدكتور؟!

ولماذا لم ينشغل على مصلحة أي منهم ؟!

ولماذا أنا بالذات ؟!

شعرت بالكآبة تتحشرج في صدري، واليأس يمسك بخناقي كأنه كابوس رهيب، فكرهت هذه اللحظات،لأن الإرادة التي أتمسك بها فتمدني بالقوة والثبات في مثل هذه الحالات، كانت غائبة دون بيان الأسباب . فأيقنت أن أقدامي

تسوقني إلى هاوية عميقة لا سبيل إلى الخروج منهـــا بــأي أسلوب .

ولكن شيئاً كان يدفعني نحو الباب، رغم أن الفــزع كان يتملكني كلما خطت قدماي خطوة تقربني نحــو بــاب مكتبه ، فما كان لي قدرة على الكلام، ولأول مــرة أغــبط اولئك الطلاب الذين لا هم لهم سوى قضـــاء يــومهم فـــي التسكع في الشوارع، فقد تعلموا الثرثرة وضـــياع الوقــت ومجابهة مثل هذا الموقف بعدم الاكتراث.

وقبل أن تمتد يدي لتطرق باب مكتبه، خفــق قلبـــي بعنف وتملكني الخوف والجزع مرة ثانية، ولكنني لم أستطع منع نفسي من التقدم نحو الباب متعثرةً بخــوفي ومتــدثرةً بالجزع الذي يكاد يسد علي المنافذ ويمنعني من التفكير ...

وشرعت بالعودة بعد أن أوشكت يــدي أن تطــرق الباب، إلا أن القدر كان حاضراً، فأبى إلا أن نلتقـــي. إذ فُتح الباب كي يخرج منه ضيف،فدعيت للـــدخول ،حيــث رحب بي الدكتور وكأني لست طالبة من طلابه، فلم يكــن

للمبالغة في الترحيب معنى لدي، إذ ربما أراد أن يشعرني بأنه قريب مني ،وليس هناك ما يفصل بيننا من المراتب أو سنوات دراسية .

حينما دخلت مكتبه تمالكت نفسي ،فقد أبقى يدي في أحضان كفه أكثر من اللازم ،وتفحص وجهي متبسماً رغم محاولته إخفاء تلك الابتسامة، فشعرت بالخوف من شيء غامض فكأنما كان على وشك اغتصاب شيء من خصوصيات حياتي ...

هذه النظرات المتفائلة، وهذا اللقاء على غير موعد . ودفء كفه الذي ما زال عالقاً بكفي . ورغم دهشتي لهذه الملاحظات فلم يمنعني الحذر والخوف من تفحص أصابع يديه، فقد أطمأنت نفسي عندما تأكدت من خلو أصابعه من المحابس .

إنني أخاف الغرباء .فأنا لا أعرف ما يخفيه هذا الرجل، فربما كانت هوايته الجلوس إلى الفتيات، يتمتع بحديثهن ويحوم حول جمالهن كما تحوم الفراشة حول

الزهرة . لا أنكر أنه وسيم الطلعة، في وجهه شيء جذبني إليه واشعرني بأنني لست غريبة عنـــه، وهـــذا الإحســـاس جعلني ارتاح إليه، وكأن الصداقة قديمة عهد بيننا .

ويكفي أنني بدأت أشـــعر بالراحـــة خـــلال هـــذه الدقائق... أحاطني باهتمام وعناية، وسأل عن أشياء كنـــت أظنها تخصني وحدي ،فلم أبد حرجاً في الإجابة عنها . ولو أن أحداً طرق مسامعي بهذا النوع من الأسئلة ،لكـــان فـــي موقف لا يحسد عليه . فأنا لا أسمح بـــأن تكـــون حيـــاتي الشخصية مداراً لأسئلة الغرباء.

شجعني، بل طمأنني، ولكنني ما زلت أخشاه وأحسب أنه ينظر إلي على أنني امرأة كباقي النساء، فـــي جســـدها إغراء وفي حديثها متعه ... فكم تعجبت للإثراء الذي تركه هذا اللقاء، فلم أعتد طوال حياتي مثل هذا النوع من التقدير والعناية ...

هذا الرجل له مثل شعوري ويملـــك إحساســـاً مثـــل إحساسي، إنه بحاجة لمن تغمره بالعطف والصداقة ،وأنـــا

بحاجة لمن يحيطني بالرعاية والحنان... إنني أتفهم موقفه وأجد له العذر المناسب لهذه الدعوة بدون اعتراض .

تشاغلت عن خوفي بإلقاء نظرة على مكتبه الفخم . شهادته باللغة الإنجليزية تتصدر الحائط خلفه، تحيط بها كثير من شهادات الامتياز والتقدير، والمكتبة تكتظ بالكتب والمراجع... الأضواء تشعرك بالراحة والهدوء .

حملقت في وجهه، فرأيته كطفل بريء يهرب من خجله ليتعثر بحيائه، فقد أدهشني التناقض في اسلوب تعامله معي . خجله في الحديث معي ،وجرأته في دعوتي لمكتبه واحتضان يدي بين كفيه أكثر من اللازم ... وأشياء أخرى يرتجف لها الفؤاد ولا يطمئن لها القلب ...

جلست على الكرسي، ينتابني شيء من الخجل، ويكاد الحياء يمتص عمري، ويحول الغرور الذي حدثتك عنه قبل قليل إلى شيء غامض يكتنفه ملل وشيئ من اليأس يدفعني بقوة نحو الباب . فقد كانت هذه المرة الأولى التي أقابل فيها أستاذا في مكتبه لأمر لا أعرفه ،

وقرأ الأستاذ ذلك التردد على ملامح وجهي، وخـــيم السكون، وكأن الصمت قد خلق منا تمثالين لا ينطقـــان إلا بمعاني الانتظار، دون أن يعرف أي منا كيف يبدأ الحديث، وخيل لي أن الموقف طال ،وأن لغة الكلام التي تعبر عـــن صدق مشاعرنا قد بطل مفعولها، وتوقف سحر معانيها ،لأن مناجات العيون أصبحت قادرة على نقل الإحســـاس الـــذي يفعم قلبينا ...

وبحث كل منا عن مفتاح الحديث الـــذي طـــاب لـــه الاختفاء خلف أسوار الصمت، وبدا لي أن الأوان قد آن كي أغادر المكان، ومع أن الرغبة في البقـــاء كانـــت صـــاحبة الأمر إلا أنني تجاوزت الصمت، لأنني بدأت أشعر بدوار يأخذ برأسي ،وأن العرق بدأ يتصبب بارداً على جبينـــي، فأيقنت أن وجودي في هذا المكتب لم يكنشيءا طبيعيـــاً وإن كان مؤنساً، إذ لم يكن هناك أدنى شك من إحراج لنا معا لو أن طارقاً اقتحم الباب المغلق، ورآنا وقد احمر وجـــه كـــل واحد منا وكأن شئاً ما ــ لا قدر الله ــ قد حدث بيننا ...

لقد ازداد القلـــب وجيبـــاً ،وخفــق الفــؤاد بـــدقات مضطربة، دقات غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، لم تكـــن دقات خوف ورعب ،بل كانت دقـــات لذيـــذة كـــم تمنيـــت استمرارها...

وكنت كالغريق في حيائه، تغمرني نشـــوة غريبـــة لتزرع في جسدي شعوراً لذيذاً... فصممت على أن أتجاهل كل أمر فيه حرج. فقد تأكدت أنه يناجيني، وأن دقات قلبي تصرخ في آذانه، فلا أخشىشيءاً لأن الرعشة اللذيـــذة لا زالت تسري في عروقي، فتملأ جوارحي فخراً واعتـــزازاً ...

فهذا الرجل مثلي تماماً، ليس لـــه معرفـــة بـــالجنس الآخر. فما هي الطريقة المثلى التي تحررنـــي مـــن قيـــد الانتظار.؟

إنني لست واحدة من اولئك الفتيات اللواتي يتصـــيدن الشباب بحركات رعشاء ... وهذا التفكيـــر وحـــده أثلـــج

صدري، وبث الراحة في نفسي، وملأها فخراً بأنه اختارني دون غيري من الطالبات ....

وعدنا إلى الصمت، وتساءلت بصمت أيضاً :

لماذا كل هذا الصمت ؟ ألا يجدر بـــي تـــرك هـــذا المكان! فلا جدوى من الجلوس هكذا كما يجلـــس تلاميـــذ الصف الأول أمام أُستاذ تجرد قلبه من الرحمة . وتململـــت إعلاناً للمغادرة لولا أنه أدهشني بملامح وجهه عندما قال:

ـــ لا داعي للمغادرة فلم نتحدث بما فيه الكفاية .

ولعل الدكتور نسي أنه لم ينبس ببنت شفه حتى الآن. فبدا على وجهي طيف ابتسامة ، وزايلني الخوف وعاودني الحبور. ثم تأملت أسباب وجودي في هذا المكان وبحثـــت عن سبب له صلة بما نحن عليه، فلم أجـــد حقيقـــة اســـتند عليها. وبدا الأمر أمامي في صورة غير لائقـــة فســـاءني منظري .

إنه صمت مؤلم وعلي أن أغادر الغرفة فوراً ،فـــإن عجزت الألسن عن النطق، فيكفي أننـــا تبادلنـــا الحـــديث بالعيون والجوارح، فالإحساس أقدر علـــى التعبيـــر مـــن الكلام... ولست مبالغة إن قلت :

إن الشعور بالخوف قد رحل عني ،وتلاشـــى القلـــق الذي دب في أوصالي عندما كنت في الطريق إليـــه، فقـــد أصبحت الصورة واضـــحة بعـــض الشـــيء ،وأن تبـــادل النظرات بيننا اختلاساً كانشيءاً ممتعاً، وخير وسيلة لفـــتح قنوات التعارف ولكنك ربما لا تنعم بلذة شيء يبدو علـــى بعد قيد أنملة وهو في الواقع أبعد من الأفق، تحسبه طـــوع أناملك، فإذا به سراب...

وهذا ما كنت أخشاه وأتمنـــى أن لا يحـــدث، وأن لا تكون نهاية هذا الموقف غير مرضيةٍ لطموحي . فقد بلغت الهدف من هذه الزيارة، ويكفيني اقتناعاً بما ذهبت إليه مـــن أفكارٍ ، تخيلتها حقيقة احتلت مكانها في عقله قبل أن تجـــد لها مكاناً في عقلي .

فلا أدري كيف اندست ذكريات موقف والدتي من ذلك العريس في أحداث هذا اليوم . فلن أنس أن إرادتها كانـــت عكس رغبيتي. فلا بد أن أستعيد في ذاكرتي ما قلته عـــن ذلك الموقف الذي صممت عليه الوالدة دون رغبة منـــي .. إنني أذكره الآن فأمتلئُ فرحاً الأن لصورة انقلبـــت رأســـاً على عقب ،وشتان بين ما تحب وتتمنى وبـــين مـــا تكـــرة وتتمنى عدم....

أحاول الآن أن أتذكر وجه ذلك العريس الذي طـــرق باب بيتنا ذات مرة، لأقدم إليه الشكر والإمتنان على طبـــق من ذهب، لأنه غرس في داخلي شعوراً جعلني أنظر إلـــى الرجل نظرة تختلف عن نظرة البنت لوالدها ...

وأخذت أفتش عن ذلك الشيء المجهول ،المزروع في شخصية هذا الدكتور والذي يجذبالمرءة إليه، فأجد البراءة والصدق يشعان من عينيه، فأركض لاهثة بحثاً عن الشعور اللذيذ، الذي يحتلُّ بؤرة العاطفة المزروعة فـــي أعمـــاقي ،فإذا به حبيساً في أعز مكان في القلب...

وهذا بعض ما كنت أفكر به ،لأن الجلوس إلى والدتي لا يولد في داخلي مثل هذا الشعور. فعندما أكون وحيدة لا أشعر أنني بحاجة لصدر حنون ألتجأ إليه ،أو كتف قوية أستند إليها فقط،بل إنني في الواقع بحاجة لرجل يشغل فكري، ويدغدغ أحلامي بأحاسيس لم أتعودها ،بل أتمناها... فعندما تخلو الحياة من العاطفة، فإنها تبدو عارية كأشجار الخريف

وبدأ تفكيري يأخذ مجرى أخر، عندما لاحظت أمامه صورة لامرأة بدت وكأنها تنظر إليه بشغف، تود ألا ينظر إليه أحد سواها . تخشى عليه من كل شيء وكأنها الحارس الأمين، الذي يتقن مهنته. وفطن الأستاذ إلى ذلك،وقال :

ـ إنها والدتي .

فكانت تلك الصورة مفتاح الحديث ،إذ ليس من الغريب أن يضع الإنسان فوق مكتبه صوراً لمن يحبهم أو لهم معزة خاصة في قلبه ،فكيف لا يضع صورة والدته أمامه وهي الإنسانة التي رافقت درب حياته طوال هذه

السنوات، فقد توفي والده وهو ما زال في الخامسة من عمره، فيا عجباً لتشابه ظروفنا فكلانا وحيد بلا أب، يعيش مع والدته .

وأخذت أقارن بين والدتينا، فمنحت نفسي فرصة التمييز والانحياز، حيث صنّفت والدتي في مرتبة أرفع، ومكانة أعلى من والدته، فهي بلا شك أكثر رقة وعطفاً، واحسن تصرفاً وأصوب اختياراً، ووجدتني أتحامل على والدته بعض الشيء، لأنها تفوق والدتي جمالاً وحسناً وربما أناقةً ...

فقطع علي الاسترسال في المقارنة قائلاً :

ـ إنها امرأة عظيمة.

قلت بسرعة وبدون تفكير .

ـ نعم، بلا شك فهي كذلك.

أجبته وأنا ربما لا أعرف عما يتحدث . ثم قال:

ــ آسف جداً لإضاعة وقتك، فأنا لا أعرف إن كـــان مـــن حقي أن أطلب إليك الحضور إلى مكتبي، ولكن عذري أنه لا يعجبني أن يتغير مستوى طلبتي، فأنا أريد لهـــم التقـــدم دائماً، فقد لا حظت منذ أسبوع عدم اهتمامك بالمحاضرات، ولا أريد أن أقحم نفسي في معرفة الأسباب، فهذا أمر يهمك وحدك، والذي يعنيني أن تعودي إلى سابق عهدي بك مـــن الحيوية والنشاط في إثناء المحاضرات، أم ترين أني غيـــر مصيب في رأي؟

ثم توقف عن الحديث، وتكلمت أنفاسه التي شـــعرت أنها تلفح وجهي رغم ما يفصل بيننا من مسافة، كنت فـــي رحلة من التأمل ،يحف بها الخوف والذعر والأمل واللهفة، وعندما يكون الأمل جميلاً واللهفة وقعها محبـــوب يهـــواه القلب، يهون كل أمر صعب... وتمتمت بكلمات فهم أنـــي موافقة على أقواله، واستأذنت بالخروج .

لقد جئت وأنا لا أعرف سبباً لتلك الزيارة، ولكننـــي على يقين أن جملة من الأشياء تجمعنا، لأن الفـــرح الـــذي

يدب في جسدي يفسر ما أعيه من أفعال ،فقد كنت كـــأنني أقوم بحركات لا إرادية وأشعر أنني كالذي يمشي وهو نائم.

فما هو تفسير تلك الحركات اللا إرادية التـــي كانـــت تصدر عني؟

وكيف افسر شعوري بأنني أمشي وأنا نائم ؟

أنا مشتاقة لمعرفة الحب لأقف علـــى معنـــى لهـــذه النبضات الغريبة التي يرسلها قلبي ... حتى ألتمس العـــذر للمحبين .

وقبل أن أغلق الباب خلفي، ألفيت فتاةً تـــدخل مكتبـــه وكأنها تتعثر حياءً وخجلاً فرمقتها بنظرة سريعة، وأمضيت في طريقي وصورتها تنطبع في ذاكرتي، إنها جميلة جداً . توحي إليك الأوراق التي بين يديها أنها آتية إليه في عمـــل، فهي بكل يقين ليست طالبة في الكلية، فلم يسبق لي رؤيتها بين الطلبة من قبل .

ودفعني الفضول والغيرة إلى الوقوف في الممر الطويل،متظاهرة بالنظر إلى الصور واللوحات المعلقة على الجدران، وأنا لا أرىشيءاً منها، بل كنت أصوب نظري نحو باب مكتبه، كي أتعرف على هذه الفتاة وأتبين هدف أستاذي من دعوتي لمكتبه، إذ يبدو أن دعواته للجميلات كثيرة ...

ومضت فترة خرجت الفتاة بعدها تحمل بعضاً من الأوراق، وسرت خلفها فعرفت أنها موظفة ،فارتاحت نفسي، بعد أن كادت تمتلئ حقداً عليه ...وحاولت بعدها إيجاد تفسير لهذا الشعور، فأي علاقة تربطني به سوى أنني إحدى تلميذاته ــ وهن كثر ــ فلماذا أحاول أن أجد لنفسي مكانة لديه ؟!

وهل من حقي مراقبة زائريه ؟

وكيف أسمح لنفسي بكل هذه الأشياء وهو لا يعرف حتى اسمي كاملاً ؟

وكدت ألعن هذه النفس وأحقد عليها ولكنني ابتسمت ساخرةً من نفسي ، وأنكرت عليهــا هــذا الاهتمــام غيــر المبرر، فأي طبيبة أكون في المستقبل، إذا لم أرتفع بتفكيري عن هذه الخيالات التافهة ؟

فإن العلاقة بين الطالبة في كلية الطــب وأســتاذها يجب أن تكون أسمى من هذه الأحلام، ويجــب أن تتعــدى حدود العواطف، فربما كان هذا الأستاذ حريص بالفعل على مصلحة طلابه ...

فقد أسأت إليه عندما تماديت بخيالي وســرح فكــري نحو البعيد البعيد، أُحلق مع اللا أمل . ولكننــي أســتميحكم العذر، فأنا فتاة ،وهذه العواطف الغريزية التي خلقت معنــا لا نستطيع الانفصال عنها، وإن استطعنا الإنشــغال عنهــا بعض الوقت، فهذا لا يعني أنها غير موجودة في أعماقنا . ورغم أن الفراغ أخذ نصف عمري انتظاراً، فقد تمنيت أن لا يتمادى بي طول الانتظار بعد هذا اليوم...

ـ ٧ ـ

كان اعتقادي أن الجامعة منحتني فرصة الإعتمـــاد على النفس، وسمحت لي بالخروج على بعض العادات التي لا تزال الفتاة متحفظة عندما تصطدم بها . فمن حـــق فتـــاة الجامعة أن تجلس إلى زميلها عندما يدعوها لفنجـــان مـــن القهوة في مكان عام. لا غبار على هذه الـــدعوة ولا شـــك فيها. ومن حقها أن تحاوره في أمور الدراســـة ومفـــاهيم الحياة، وهذا أمر طبيعي، ومـــن حقهـــا أيضـــاً أن تشـــعر بالعاطفة اتجاه من تحب ... وهذا مباحٌ أيضـــاً لأنـــه مـــن خصوصياتها.

ولكن ليس من حق الرجل أن يعتقد أن الفتاة ســـوف تتبعه إلى أي مكان يريده ...إنه بـــلا شـــك مخطـــئ، لأن التحرر من بعض العادات لا يعني الوقوع في هاوية الرذيلة والخطأ... فلا زال المجتمع يفرض علينا عدم تخطي تقاليد الشرق، ويفرض علينا احتـــرام الـــدين وتقـــدير الأخـــلاق ومراعات العادات و التقاليد .

إنه من السخف اعتقاد بعض الناس أن العلاقـــة بـــين الرجل والمرأة يجب أن تبنى على أساس مادي ملمـــوس... فهذا مؤسف جداً، لأن الحب الذي تفرزه العاطفة عطاء من السماء ،وليس مادة نستخرجها مـــن رحـــم الأرض، فهـــذه النظرة العارية من الإحساس تخدش طهارة الحب ....

ومرة أخرى أُحاور نفسي حول الحقوق والواجبـــات وأقارن بين العاطفة والعقل ... وإذا بـــالحقوق أقـــل مـــن الواجبات بكثير، فالعاطفة، صاحبة الجول والصول، تفـــوز على العقل أحياناً فيعجز هذا العقل المسكين عن الاقتنـــاع، فتضيع منه الأدلة، ويجري تائهاً وراء العاطفة الجامحة ...

وتقف الأسئلة الغامضة سداً منيعـــاً أمـــامي، وكيـــف أهتدي إلى الجواب المناسب والعاطفة سيدة الموقف؟؟!!

فنحن لسنا سوى ثمرة لتجارب عدة، ومشاهد متعددة لمظهر واحد لا يتعـــدى هـــوامش الحـــب، وإن اختلفـــت الإنطباعات التي تسيطر علينا رغم إرادتنا . فإن هذا الكـــم

الهائل من المعاناة يدفعنا إلى الأمام بقوة الماضي، الــذي لا انفلات منه .

ووجدت أن ذكرى ذلك اليوم تتمثــل أمـــامي بكــل تفاصيلها، وأن هذا الدكتور يدخل في نطاق المتهمين عندي، وإن لم يحدث بيننا اختبار يكشف عن خبايا نفسه أو يطهــر نواياه ...

وكان من الجائز أن لا يجلب انتباهي، وأن لا تسجل ذاكرتيشيءاً من هذه المقابلة ،لو أن والدتي لم ترغمن على مقابلة ذلك العريس وزمرته ،الذين شربوا قهوة عدم الرضى ورحلوا. لقد أصبحت تلك التجربة أقرب إلى أن تكون فـــي نظري مقياساً مجرداً من القيم الإنسانية ،وكأن الفتيات فـــي سن الزواج لسن مخلوقات من دم ولحم وإحساس وشـــعور، لأن عروض الزواج التي تتم بهذا الأسلوب أدعى إلى خلق شعور الكراهية وعدم الرضى لدى الفتيات، وربما تصـــبح هاجساً يسكن قلوبهن ويزرع الريبة والشك فـــي حيـــاتهن الزوجية ويقلب موازين سعادتهن إلى نكد وكراهية وحقد .

ولعل امتلاء صدري بسعادة اللقاء ومتعة التحدث مع من ترتاح إليه نفسي، جعلني أستسلم، فلم أرحم نفسي مـن المفارقات الكثيرة، التي تمر بحياتي فيتمخض عنها صراع يجذبني لواقع تتوارد منه الأفكار والأحداث.

وأذكر أنني تعرضت لموقف، لعله في ذاته سـخيفاً، ولكنه كان سبباً في تغيير مسار حياتي، بل خلق مني إنسانة غير تلك التي تقبع في داخلي، حيث اعتاد أحد المحاضرين أن يكثر من الأسئلة التي يوزعها على الجميع، بـل كـان يفاجئ المنشغلين عنه بأسئلة من العيار الثقيل، تصـل بهـم إلى حد الإحراج.

وقد تعرضت مرة لمثل هذه المواقف عندما فاجـأني بسؤال أيقنت أن من المستحيل أن تجـد لـه جوابـاً بـين صفحات جميع الكتب ... فوقفت بين الوجوه التي تحدق بي دون أن أرى واحداً منها، والعجيب أن لساني أصر علـى عدم الكلام، فأذهلتني غرابة الموقف، وهـاجمني الحيـاء

القاتل، وتولاني اليأس، فعبثاً كانت محاولات العثور علـــى جملة ترسو بي على بر الأمان ...

شعرت بعذاب تمنيت أن يدفعني للهرب من أُولئــك الطلبة الذين كثر بينهم اللغط والهمس والغمــز ... رفعــت يدي فظن الدكتور أنني عثرت علـــى الجــواب . ولكننـــي استأذنته بالخروج. فغادرت القاعة لا ألوي علـــى شـــيء، متجاهلة ما يحدث خلفي، لاهثة كمن تركض خلف الأحلام الشاردة...

وفجأة توقفت قدماي أمام مكتبه .عفــواً لا أريـــد أن تذهب أفكارك ونواياك أيها القارئ العزيز، إلى مدى الشك والريبة، بل أحب أن تكون الثقة بيننا قائمـــة علـــى الــود والصراحة، ومن أجل ذلك أخبرك بأنني ذهبت إلى مكتـــب الدكتور بسام، أشكو إليه أمـــري وأطلـــب منـــه العـــون والمساعدة .

فكان حديثه بلسماً أحيا في داخلي أملاً باسماً، فأنساني ماحدث وجعلني قادرة على اســتيعاب المواقــف الحرجــة

والتأقلم مع الأحداث اليومية ، فأقبلت على الحياة الجديـــدة، بشغف وجد، وعندي رغبة لاستبدال الهم بـــالفرح واليـــأس بالأمل، فجعلت من لقائه العزاء والسرور، وكـــأن الحيـــاة كانت صحراء قاحلة ومكتبه الواحة الخضـــراء ذات النبـــع الصافي الذي يهفو إليه من تاه في الصحراء واشـــتد عليـــه الظمأ...

لم يعد لحياتي هدف سوى الدراسة ولقائه، حيث كنت ألتمس لديه الأعذار من أجل زيارة مكتبه من حين لأخـــر، فكم أحببت أن أجد منفذا مما أنا فيـــه مـــن التخـــبط بـــين الإعجاب الذي يبدو واضحاً على وجه حسام، وذلك الحـــب الذي أتوقع أن يعلنه استاذي بين عشية وضحاها .

واحتار قلبي بين حسام ـــــ زميل الدراســـة المقيـــد بسلاسل من الخجل ـــــ وهو نفس الشاب الذي رأيته فـــي المقهى يرمق تلك الفتاة بنظرات الإعجاب وهي في غفـــلٍ عنه، وكاد إعجابي به يقترب من الحب .

أما حبي للدكتور، فهو حتى الآن يبدو أنه حب مــن طرف واحد، أو ربما كان رغبة تمخضت عــن وهــم ... وعزائي أن تلك اللقاءات كانت تغمرني بالسعادة مع أنهــا كادت تخلو من الأمل...

سألني ذات مرة إن كنت أعرف شيئاً عن الدراسة في الغرب ؟ وعلى وجه التحديد أميريكا .

فقلت له : ــــ أعترف إليك بأن ما أعرفه عــن تلــك الجامعات أقل من القليل.

وقادنا النقاش إلى الحديث عن الحياة الإجتماعية في جامعات أميريكا وجمال الطبيعة في تلك البلاد، وتنوع سبل العيش. ولم يخجل عندما أخبرني أنه عمل بائعاً فــي أحــد المحلات التجارية، لأن العمل لا يعيب الرجل فقد تحــرر الإنسان هناك من عقدة العيب ما دام العمــل شــريفاً، وأن بعض الإحصاءات تقول بأن ثلثي الشــعب الأمريكــي قــد عملوا في مطاعم الوجبات السريعة...

ثم تحدث عن العلم والثقافة، فعلمت منـــه أن الثقافـــة ليست حفظ ما بين السطور من كتب المدارس أو الجامعات، فالثقافة هي تفهم الحياة بجميع أطيافها ،ومعرفة ما تفـــرزه الحضارات وما تشرعه الأديان، والإلمام بعادات الشعوب وسبل عيشهم ومظاهر الطبيعة في شـــتى بقـــاع الأرض... لذلك فكثيراً ما يتردد على ألسنة الناس أن المثقفين في بلادنا عملة نادرة.

ووجدتني أتزين قبل أن أخرج من البيـــت، أصـــفف شعري، أهتم بمظهري، وارتدي ثياباً متناســـقة الألـــوان، وكأنني ذاهبة إلى حفلة ساهرة . كنت أفعل ذلك كي أرضي هذا الرجل الذي قد لا يهمه أمري، ولكن فطرةالمرأة تـــأبى إلا أن تبدو جميلة، حتى أمام رجل لا يهمه أمرها .

وتساءلت إن كان وجودي في مكتبه ،بمظهر أنيـــق، وشكل جذاب، يملأ قلبه فرحاً ؟أم إنه كغيره مـــن الشـــباب يظن بالفتاة سوءاً إذا جلست إليه وحيدة في مكان ما .

وربما كان الأمر من أساسه لا يهمه، لأنني مجــرد إحدى طالباته، وهن كثر، فلا يكترث لشكلي أو مظهري أو حتى لا يفكر بإحساسي ...وربما كان استقباله لي في مكتبه مجرد شحنة من العطف يفرغها استاذ ماهر في جعبة إحدى طالباته وهي ليست إلا جرعة تقوي الثقة بالنفس...

وتكررت دعواته لي، فخضنا في أحاديــث متنوعــة، وبحثنا شتى المواضيع، وما كنت بحاجة لمزيد من الوقــت لأكون عنه فكرة جيدة، فقد كان هو الفكرة الحســنة التــي يدركها العقل ويتقبلها الذوق مــن أول لقــاء ،فالابتســام لا يفارق مبسمه، فما خلق الإنسان ليحبس نفسه فــي بوتقــة الحزن، ويكبلها بأغلال الوحدة...

وبدأت أجد الراحة في تلك الــدعوات علــى قلتهــا وأتلهف عليها وأشعر أنها تحقق لي بعض السعادة، فعنــدما أجلس إلى مكتبه، كأنما أجلس إلى حضرة قــديس، تهــيمن علي هالة من الهيام، أنهل خلالها من ينبوع عذب ...

لا أكتم سراً عن نفسي إن قلت :إنني فكــرت بهــذا الرجل، التفكير الفطري الذي تشعر بهالمرأة عندما تكتشف بأن الرجل يخصها بنظرات ذات معنىً يعكس مدلولاً يعبــر عن لهفة وشوق...   ولكنها أفكار مشوهة ،لا تقــم علــى أساس متين، وأن تعصبي لعدم الــزواج، جعلنــي أتمســك بموقفي . وربما كانت بعض الصفات الشخصــية التــي لا زلت أتمسك بها تحول دون التخلي عن مخلفات ما ترســب في ذاكرتي، من أحاديث جرت في البيت، من الأقربــاء أو أصدقاء العائلة فأصغيت إليها أو سمعتها بالصدفة ...

فلا ريب أنني ابتليت بالشك ،فقد كنت أنظر إلى الحياة نظرة مترددة، يحيط بها الخوف والقلق، كنظرتــي لــوهم يفرض سطوته علي في لحظات من الضعف سواء بسواء .

وبدت علاقة الرجل بالمرأة عندي، علاقة يحيط بهــا الغموض، ويحجبها عن عيني دخان كثيف، وأن تفكيري لا يصل إلى درجة الفصل بين الحقيقة التي تفرض رغبة اللقاء بين الرجل والمرأة، وبين الخيال الذي يسكن عقولنا ،فيشغلنا

التفكير به في أوقات الفراغ، لأنه أصبح جزءاً من الأحلام التي ترعى قلوب المحبين الذين عذبهم الحب فتمنوا تجربتة والعيش في ظلاله .

ولعل اهتمامي بما سمعته عن قصص المحبين، دفعني للبحث عن تجربة الحب بشغف، فلم يخفف هذا الإحساس عن نفسي ألمها من داء الوحدة ،الذي أصبح كثير الشبه بالمخدر الذي تفر منه ولا تصبر عن الابتعاد عنه ... بل ازددت استسلاماً لصراع متواصل بين الإعجاب والحب . فعندما أجلس أحتسي القهوة مع حسام، يطاردني طيف حبي لأستاذي، فيحلق بي خلف نطاق الأحلام، وعندما أخلو بأُستاذي في مكتبه تتراقص أمام عيني مظاهر الإعجاب بحسام فيطوف بي فوق السحب...

دعاني حسام ذات يوم لزيارة معرض لأحد الرسامين العرب .تجولنا بين أروقة المعرض، فأبدى إعجابه بكثير من اللوحات، فمعظمها تحمل أفكاراً تعبر بصدقٍ عن طابع مميز ينعكس على مظهر رائع لجمال

اللوحة، فالخلاف واضح بين لوحة تعبر عن شواطئ بحيرة هادئة، وبين لوحة تمثـل أشـجار الخريـف العاريـة ... استوقفتني لوحة تثمل جزءاً مـن أسـوار مدينـة القـدس يتوسطها "باب العامود" بأقواسه الحجرية العاليـة، وجمـال زخرفة فن العمارة الإسلامية... فقرأت على هوامش تلـك اللوحة دعوة للحب، لأن المحبة بين هذه المدينـة وجميـع الناس، تأصلت منذ القدم، ،تشعر أنك تعرف جميع جزيئات هذه اللوحة، فكأنك أنت الذي رسمتها، أو شاركت الرسـام في وضع معالمها . فالرسمة بحد ذاتهـا بسـيطة، ولكنهـا تشحنك بشحنة عاطفية يملؤها إحساس بالغضب والثـورة، فتود لو باستطاعتك فعل شيء، إلا أن العجـز يقـف لـك بالمرصاد.

ظننت وأنا أتأملها أن الجسور التي تربطنا بهذه المدينة قد شارفت على الزوال، إلا أن هذه اللوحة تـذكير بوجـع الألم، وأظن أن هـذا هـو المعنـى الـذي ذهـب إليـه الرسام،عندما لون بريشته أول خط فيها .

فنحن جميعاً أبناؤها أو عشاقها نتلمس هذا الألم في أجسادنا فيصدمنا الفضول، وتغلب علينا حالـــة مـــن عـــدم الإهتمام... شعرت برغبة شديدة في امتلاك هذه اللوحـــة، وكدت أحقد كثيراً على الإنسان الذي سبقني فـــي شـــرائها عندما لاحظت على إحدى زوايا اللوحـــة كلمـــة مباعـــة، ولكنني شعرت بشيء من الغبطة لأنني لست الانسان الوحيد الذي يحب هذه المدينة، بل إن حبها متأصـــل فـــي قلـــوب الكثيرين.

لقد خلقت هذه المفارقات مني إنســـانة متـــرددة لا تستطيع اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وكنـــت أحياناً أظن أن مفتاح الحب بيدي، أفتح به قلب من أحـــب وأهوى من أريد في أي وقت وفي أي مكان، فمن الأولـــى في هذه الحالة أن أجرب هذا المفتاح في بـــاب قلبـــي أولاً، علني أعيش عيش السعداء...

لقد كان هذا الظن فرصة كلمح البصر ولكنــه خلــق أحساساً بالحب، جعلني أحسب ألف حساب لضعف قلبــي، الذي لا يقوى على تحمل الفرح دفعة واحدة .

فعندما تتاح لي فرصة التمتع بــذلك الــنغم الحــالم ،الذي حظيت أذناي بالإصغاء إليه، يخيل إلي في هذه المرة أنني لا أستمتع به لوحدي، بل إن أستاذي يشاركني متعــة التمتع به أيضاً .

وبات الحلم حقيقة، وأصبح الشك يقيناً . فقد تعلقــت بالدكتور بسام تعلقاً فاق الوصف، لأنني وجــدت فيــه الأخ والصديق والأب والحبيب، الذي إن غادرته بدأت بالبحــث عنه من جديد . وتوالت زياراتي لمكتبه وكأن الهدف مــن حضوري إلى الجامعة، زيارته والاستماع لحديثه . فقد كنت أتجمل من أجله ،وأكرر ارتداء الثياب التي يبدي إعجابــه بها، وأعد الثواني قبل موعده، وأحس بنشوة وأنا عنده ...

ونسيت ارتباطي بالناس من حولي . وتذكرتشــيءاً هاماً كنت أتغاضى عنه، تذكرت عدد سنوات معرفتي به ،

فأيقنت بأنني ما زلت في سن مبكرة، فلا بـــد مـــن نســـيان لحظات اليأس، والتحرر من الشعور بخيبة الأمل ،الـــذي يصاحب كثيراً من الناس. فسنوات عمري تشدني للرجـــل الذي يحيطني بعطفه ،وتغار عليّ رجولته، ويحميني بحبه، ويفتح قلبه كي أفرغ فيه حنان أنوثتي... إنني أحبه، ومن أجله أحب جميع الناس .

كنت يومها في الفصل النهائي، أشهر معدودة علـــى التخرج. وكانت الأمور تزداد صعوبة وتعقيداً أمامي ،وهي أبسط مما يتخيل المرء . حيث أن الفصل الدراسي الأخيـــر من الحياة الجامعية له طعم مختلـــف، فالإحســـاس بالأمـــل يترصده اليأس، والشعور بالفرحة يختلط بالخوف، ولا تخلو الرغبة بالنجاح من الإحباط، إذ لا بد من التوتر والارتبـــاك أحياناً .

أما الحاجة إلى التعاون بين الخـــريجين أمـــر بـــالغ الأهمية والجري وراء الأساتذة لمناقشة فكرة أو لوضـــع اللمسات الأخيرة على موضوع بحثٍ أمـــر لا بـــد منـــه.

والسعي في طلب معلومة من مرجع كثر الطلب عليه مـــن قِبل الطلبة فطال غيابه عن أرفف المكتبة، أمرٌ يسبب كثيرا من القلق. وأشياء كثيرة يجد المرء نفســه عــاجزاً عــن ادراكها فيتغاضى عنها لضيق الوقت أحياناً ،فتصبح المكتبة والمختبر هما بيت الطالب ... حيث أن جميع أيام الجامعة، وكل ما درسته تقف بك عند حد هذه الأيام، إنهــا المحطــة الأخيرة، وقل إن شئت إنها التجربة الأخيرة التي تجتاز بها بوابة الأحلام ... وإذا بك في خضم تيار جارف، لا يعترف بالماضي بل يفرض عليك دروساً لا تمت للجامعة بصلة .

إنها دروس الحياة، وهي أكثر تنوعاً وأبعد اختلافــاً عما تعلمت في الجامعة، وأن عليك أن تبدأ مرحلة التحصيل من بدايتها بثوب جديد وهمة لا تعترف بالملل وعزم مــن حديد لا تلين له قناة. فقد قيل إن الحياة مدرسة .

- ٨ -

كانت الوالدة ترهق نفسها في سبيل راحتي، إذ أيقنت بأنها على وشك جني الثمار التي أفنت زهرة شبابها من أجلها، فيوم تصبح ابنتها طبيبة، بل أول طبيبة في العائلة فهي بلا شك ستكون أسعد مخلوقة على وجه الأرض.

فقد ضحت بأشياء كثيرة من أجل تحقيق هذا الهدف ، ويكفيها تضحية أنها رفضت الزواج يوم إن كانت أرملة في عمر الورد ،يتمنى الباحثون عن الزواج الإقتران بها ،أو حتى الجلوس في محيط أريجها ... فقد دأبت على الهرب من أعينهم، والتواري عن الريبة التي تبرز من خلف أقنعة الشك التي تخفي نوايا السوء على وجوه أصحابها قبل أن تبدي عليهم بشائر الخير.

وحتى الأهل لم تسلم من كلامهم وظنهم . إنها لا تفتأ تردد على مسامعي أن أحد الأقارب طمع بها ،فلاحقها أياماً وشهوراً طويلة دون أن ينال منها سوى الصد وعدم

الاكتراث مما حدا به إلى انتشار الإشاعات الكاذبة وترويج الحكايات المسيئة بالأخلاق، حتى انكشف أمره بين الأهــل والأقارب فما كان جزاؤه إلا الخزي وقلة الاحترام .

كانت تضحك كثيراً عند ذكر هذه القصة، لأنها كانت تُشبهالمرءة الأرملة بحديقة ورودٍ بلا أسوار، تشرئب أعناق الرجال خلسة لاستنشاق عبيرها وقطف أزهارها ...

وهذه الرؤيا التي تعبر عن إحساس عميــق لــدى الأرملة، أجمل من اتهامها بالمراهقة إن خرجــت لقضـــاء حاجة من مستلزمات البيــت، دون أن يشــعر الآخــرون بالمعاناة والوحدة وحياة الضياع، التي تقذف بها بــين مــدٍ وجزر، إلى أن تجد نفسها في طريق ينتهي إلى جدار يتعالى في الإرتفاع وليس فيه منفذ ولا مسلك ... فلــيس أمامهــا سوى رفع الراية البيضاء، والتسليم للأمــر الواقــع، بــل والسقوط في هاوية اليأس، إذ لا سبيل إلى النجاة .

قررت بعد الظروف التي مرت بي ، والأحــداث التي اعترضت سبيلي، أن أُغير اسلوب تفكيري . فلا أُدقق

في توافه الأمور ولا أتابع أموراً ليست بذي شـــأن .طلبـــاً للراحة النفسية .وإن كان لا بد من الشكوى ــــوهذا أمرٌ لا يمكن الاستغناء عنه ــــ فلتكن نفسي هي الحكم. أبثها ما لم أبح بسره لغيرها... ولن أجد من هو أرحـــم بـــي وأعلـــم بأحوالي منها .

ثم استبدت بي الهواجس وخُيل لي أن هذا لـــيس هـــو الحل الأفضل، لأنني لن أستطيع التخلي عن التفكير بسهولة ويسر، ولن يكون باستطاعتي الانفصال عن نفسي .

ربما هجرت زملاء الدراسة ! ولكـــن كيـــف يكـــون باستطاعتي التوقف عن التردد على مكتب الدكتور ؟ وكذلك فإن عدم الذهاب إلى المقهى من الأمور المستحيل تقبلها .

ورأيتني مرة أخرى اجتـــاز خـــواطري، فيلـــذ لـــي الإنخراط بضجيج الشوارع ،ويطيب لي عدم تغيير ثـــوبي والإستقرار في مكاني وعدم الفرار من أفكاري، كي أعيش يومي بين الأحداث والمواقف والشخصيات، رغم ســـخافة بعضها وأهمية البعض الأخر.

واوُلى محطاتي كانت عند حسام_ هذا الزميل الذي قربته مني مدرجات الكلية، وجمعتنا المحاضرات والمناقشات، فعلمت أنه رغم قسوة العيش الذي يحيط به وصعوبة الظروف التي لا تفارقه، ونحس الطالع الذي يقف لأسرته بالمرصاد – كان يختلف عن كثير من الذين جمّد الفقر أفكارهم، وأصبح رادعاً يحد من طموحهم، فسلموا بالهزيمة.

لقد تخطت معلوماتي عنه سواتر كان يخفي خلفها بياناته الشخصية وأسراره العائلية . عفواً، فلم أُرهق نفسي لجمع هذه المعلومات، بل هي الصدف التي تجعلك تطلع على ما حرص الأخرون على أن يكون في طي الخفاء ...

ومتى كان الفقر عيباً ؟

فقد ثبت عندي أن أبناء الفقراء أكثر ذكاءً من أبناء الأغنياء، ويكفيني هذه المعلومة التي جاءتني من حسام، بدون عناء في البحث لا مشقة في التنقيب والمقارنة ...

فقد وجدته يتحدى كل شيء، ويستمر في دراسته، ولا يسمح لأحد أن يتفوق عليه علماً وأدباً وذوقاً . وأصبحتُ أقدر ما يكابده في حياته من سوء الطالع، وما يعانيه من قسوة الأيام. ولشدما انتابتني الكآبة، وخشيني الألم ،كلما طالعت على وجهه الشرود والحزن، وكأنني موكلة بقراءة أفكار الناس، أو خبيرة في كشف أسرار حياتهم، بل مشاركتهم الضراء دون أن يكون لي نصيب في السراء .

ومن عجب أن خيالي لم يتعد هذه المسؤولية بل زادتني إفراطاً في الجري وراء الأحلام، وجعلتني لا أدرك أن كثيراً من الأحلام لا تعدو كونها أحلاماً رُسمت في خيالنا من العدم، وأن ثمة اختلافات جوهرية بين الظاهر والباطن . فعرفت ربما بعد فوات الأوان، أن الفقر قد يفرض على الإنسان أُسلوباً من العزلة يصاحبها الجزع من الحاضر والخوف من المستقبل...

عرفت الآن سبب الحزن الذي يشع في عينيه، واكتشفت سر نظراته الهاربة مني عندما أبصرته أول مرة

في المقهى، حيث ظننته يومها يحدق بتلك الفتاة التي أشعلت نار الغيرة في قلبي البكر آنذاك ...

فكان من الطبيعي أن يتكرر اللقـاء ،وأذكـر أننـي خرجت من البيت مبكرة بعض الشيء، قبل محاضرة كـان موعدها الساعة العاشرة ،وكنـت أسـرع الخطـى نحـو المقهى، وكأنني من شغف قلبي عليه كنت على موعد معه هو بالذات، وأنا على يقين بأن خيالي لا يطوف بخياله رغم التقاء نظراتنا مرة أو مرتين، دون أن يترك ذلك أي تأثير ظاهري عليه .

اتخذت لي مقعداً في المكان نفسه ، وجـال نظـري ينقب عنه حتى استقر عليه في الزاوية نفسها ،فألفيته جالساً بقامته الفارعة، وبهاء طلعته، ووقـاره الجـذاب ،وحيـداً يحتسي القهوة كما رأيته في المرة الأولى .

ثم تجولت بنظري على جميع طاولات المقهى بحثـاً عن الفتاة فلم أجد لها أثراً . فسرى الارتياح في فـؤادي . فلا بد من سبيل يقربني منه . ولكن خوفي من التقاليد كـان

حائلاً دون ذلك . فوجدت في الجلوس بعيداً عنه سبباً كفيلاً بأن يُذهب عني المخاوف، وإن لم يقلل من أسباب كرهـــي للعادات والتقاليد، التي يفرضها المجتمع على الفتـــاة حتـــى وإن كانت جامعية ...

وهكذا كانت تحاصرني أسباب تافهة ،وأنا لا أريد أن يتكدر صفوي في ذلك اليوم، ولا أحبذ الفشل في تحقيق هذا اللقاء الذي طال انتظاري له . لم يضحك، ولم يكن يثرثـــر مع بعض الجالسين على مقربة منه . فتأكد لي أنه لا يعنيه شيء مما يجري حوله . أو أنه لم يتصد لحمل هوم الـــدنيا على رأسه، وأنه بـــريء مـــن مســـؤوليته عـــن الفقـــر والمجاعات والفتن والحروب في أسيا وأفريقيا...

لقد نسيت جميع الأفكار السوداوية التي كادت تحول بيننا، وصممت على تحطيم حاجز التقاليد الـــوهمي الـــذي يفصل بين الولد والبنت ، فانشرح صـــدري لهـــذه الفكـــرة ورقص الفرح في قلبي ودب السرور في كل قطـــرة مـــن

قطرات دمي... " ولكن ". هذه الكلمة وما يتبعهـــا ؟ تقــف دوماً أمام التنفيذ.

واظبت على الحضور إلـــى المقهـــى معظـــم أيـــام الأسبوع تقريباً ،في نفس الساعة، وكأنه موعد من طـــرف واحد دون ملل أو يأس . وفي كل يوم كان إعجابي به يزداد ولهاً ـــــ على الرغم من تكرار الجلوس إليه فـــي الحـــرم الجامعي .إلا أن اللقاء به بعيداً عـــن مـــدرجات الجامعـــة وضجيج طلابها كان له طعم آخر، فكـــم دفعتنـــي الرغبـــة لإثبات وجودي في حياته ،إلا أن عجزي كان يشدني إلـــى الخلف، ومع ذلك لم استسلم لليأس.

كان ينظر للحياة بمنظار ساخر ،فيعبر عـــن ســـعادته بابتسامة، ويعبر عن حزنه بابتسامة ،لأن حياته كانت مـــن ذلك النوع الذي تنغرس فيه صور لا يحب المرء الاحتفاظ بها، بل يتعذر عليه غض الطرف عنها .

ومع أنها صور تسكن هامش الحياة وغيـــر ظـــاهرة للعيان، فهي باقية تشغل نبض الكراهة في القلب ومصـــدراً

للحرمان ومأوى للحزن. ولكنه كان قوي الإيمان لدرجة أن هموم الحياة قد تكون الدافع نحو تحقيق النجاح . فقد ثبـــت لديه أن لا أحد يستطيع تغيير ما كتبته يد القدر ...

ورغم أن الجامعة هي الوعاء الأنيق الــذي يحــوي ذكرياتنا الجميلة، فقد كانت بالنسبة إليه درباً طويلاً مملا لا يشعر براحة السير فيه، إلا أنه كان في عجلة مــن أمـــره ليبلغ نهايته بأسرع وقت ممكن ...

فلا يُعيبه الاعتراف بأن جميع أفراد أُسرته اعتادوا حياة الفقر والعوز، إذ إن والده تحمل مسؤولية الأسرة منذ أن كان دون العشرين من عمره،فقد رزقه الله بامرأة ولود، لا تؤمن بتحديد النسل أو تنظيمه، حيث كان عـــدد أفـــراد الأسرة بازدياد مستمر كل سنة أو سنتين، فعجز الوالد رغم عمله الدؤوب عن توفير العيش. بل قنع بما يـــدفع عـــنهم غائلة العوز، ويحمي أسرته من طلب العون من الآخـــرين، ومع ذلك فقد وصل منهم زميلي هذا إلـــى كليـــة الطـــب،

وسبقته أخته إلى التخرج في معهد المعلمات، فخفف مرتبها بعضاُ من أعباء الوالد.

كيف استسلم لليأس، بعد أن تعرفت على هذا الإنسان، فلا بد من اتخاذه المثل الذي يحتذي به والقدوة التي لا بد من جعلها الهدف الذي تحفى الأقدام قبل بلوغه...

فما أسعدني إذ حظيت بفرصة يتيمة قربتني منه عندما طلب إلي بعد تردد وحياء، أن أزوده ببعض الملاحظات، وأطلعه على أسماء مراجع لمحاضرة تغيب عن حضورها. فدعوته للجلوس في إحدى المقاهي، التي يرتادها الطلاب . فأبى إلا أن نجلس تحت إحدى الأشجار ،التي تملأ ساحات الجامعة. فرحت لاعتقادي أن الجلوس في ذلك المكان أكثر متعة...

اختار المكان المناسب فاتخذنا مقعداً كطائرين غريبين هبطا في عش صقر، ترتعش فرائصنا، ونخشى كلام الطلاب قبل أن تقع أعينهم علينا . ولكثرة ما كنت

أتمنى مثل هذه اللحظات، أصبحت الآن أكثر رغبــة فــي انتهائها ومغادرة المكان.

قال بكل صراحةٍ:

- أُفضل الجلوس في هذا المكان، فإنه يشــعرني بالراحــة ،ولا يلزمني مجاملة أُناس لا أعرفهم ولا أعــرف كثيــراً من....

قلت: كيف لا تعرفهم ؟ وكثير منهم يتمنى مثل هــذه الجلسة معك. فأنت أول المجموعة دائماً .

تمتم بكلمات لم أفهم منهاشيءاً بل قرأت في عينيــه الإصرار، وعدم الرغبة في الجلوس إلا حيث أراد . وكان آخر ما أُفكر به، أن خلو الجيب من النقود في ذلك اليــوم، كان وراء ذلك الرفض، لأنني اكتشفت ذلك بمحض الصدفة .

أؤكد لك يا سيدي أنك ستكره كثيــراً مــن لحظــات الحياة بعد اكتشاف هذه الحقيقة. إننا نمضي في الحياة بحثاً

عن هدفٍ معين فنطوف حوله دون أن نحس بملل أو تعب . تدفعنا رغباتنا لتحقيقه لأنه أمل يعشش في رؤوسنا فلا نبلغه . وبدون أن ندري نسير في الإتجاه المعاكس .

ولا ينفي أحد حبه للحياة فهي سجل الذكريات الذي يحتفظ بأعز أمانينا . ورغم أن الرفض في كثير من الأحيان يضع متاريس الكراهية أمام أشياء كثيرة، تبدو حاجتها أكثر أهمية من جمالها ...

وجلسنا في المكان الذي اختاره. كنا متجاورين لا يفصل بيننا سوى الكتاب . وخشيت يومها أن اديم النظر إلى قسمات وجهه لأنه كان بالنسبة لي رمزاً للأخلاق . والمرأ ليس لديه القدرة على انتهاك حرمة الرمز، ولا يستطيع النظر إليه إلا باحترام وتقدير . إلا أنني تظاهرت أحيانا بمتابعة القلم بين أصابعه يخط الكلمات بخط جميل وكأنه يرسم لوحة رائعة المعالم .

واختلست النظر إلى وجهه، ذلك الوجه الذي يمنحك الثقة والاطمئنان، ويطالعك بشبه ابتسامة لا تفارقه

أبداً .فخلت أنني أسمع دقات قلبه ،وأحس لفح أنفاسه علـــى قسمات وجهي ...

ولا أدري إذا كان من حقي التمتع بتلك اللحظـــات . فأنا فتاة أملك قلباً بكراً، لم يطرق الحب بابه، ولم أجــرب العاطفة التي ترقص لها القلوب سعادة، ولم أعرف ســوى حب الوالدين. أما الحب الذي تتفــانى مـــن أجلـــه الفتـــاة، وتضحي من أجله بكل غالٍ وثمين، فقــد احتفظـــت بقلبـــي بعيداً عن أهوائه، لأن الظروف أقفلت باب قلبـــي بمفتـــاح أودعته طيات الزمن ...

فكيف لفتاة تائهة في خضم الحياة، أن تعثر على ذلك المفتاح ؟ فليس أشقُ علي من مهمة البحث عن شيء أجهله ،مع العلم أن البداية أصعب من عمليـــة البحـــث ذاتهـــا . فكيف إذا أهتدي إلى الطريق المجهول؟

كان الحديث بيننا أشبه بالهمس ،والحرج بادٍ علينـــا وكأن كل واحد منا ارتكب ذنباً فادحاً .... وفجأة قال:

ـــ هل تعلمين بأن هذه أول مرة أجلس فيها مع فتاة؟

اعذريني، فإن أوضاعي لا تسمح بذلك .

قلت : وأنا لم أتعود مثل هذه الجلسات،ولكن ماذا تعني بكلمة " أوضاعي "

ـ لا تهتمي بالكلمات، فإن لفظها قد لا يفي بالمعنى المقصود. ربما أحببت أن أقول إنني لست محظوظاً .

ـ إنك تجعلني أكثر إصراراً لمعرفة ما تعني.

قال : لا أريد أن ...

فقاطعته قائلة :

ـ ليس من حقي التدخل في تفاصيل أمور تحب أن تكون في طي الكتمان، وإنما هي رغبة زميلة تجلس إليك لأول مرة، إذا لم يكن في ذلك حرجاً.

أخذ ينظر إلي نظرة فاحصة، فترنح قلبي تحت وقع تلك العينين، وقد نفذ صبري وخيل إليّ أنه نسيني، ولكنني بقيت على جمودي أنتظر أن يفصح لي عما يعني . وساد

الصمت ، فازددت شعوراً باليأس وخيبة الآمل، ثم التفــت إلي وعلى فمه شبه ابتسامة ساخرة وقال:

ــ لست ساخطاً على حظي، ولكن الدنيا تأخذ أكثــر ممــا تعطي.

قلت: ألا تظن أن الدنيا لم تبخل علينا !

ــ كيف ؟

ــ إن كثيراً من الأشياء التي تحيط بنا ــــ قد يبدو بعضها لاقيمة له، ومع هذا فإننا لا نستطيع العيش بدونها وهذا بحد ذاته يكفي.

قال: ولكن البعض الذي تشيرين إليه يا آنستي هــو مــن مظاهر تزيين الحياة.....

وبعد لحظات من الصمت عاد يقول، وكأنه يحــدث نفسه:

ـــ إنني لست ساخط على حياتي،ولكنني أرى أن السعادة أن لا يكون المرء وحيداً، ولا غرابة في الأمر إن أخبرتـــك بأن الوحدة تجعلني أعيش بلا أحلام .

قلت: وإن قلت لك بأنني أخالفك الرأي .

ـــ ليس لدي رأي فتخالفينه يا آنسة ،وإنما هي وجهة نظر.

قلت : أعني قولك " بأن الوحدة تجعلك تعيش بلا أحلام " . وعندي أن المستقبل يبدأ بالأحلام .

واتخذ من الصمت ذريعة، وهو يعلم بأن الفتاة تكـــرة انتظار الصمت .

فقلت : إن لدي احساساً متزايداً بالفضول نحو تلك الأحلام التي لا تشعر بوجودها.

حاول تغيير دفة الحديث للهرب من هفوات لســـانه فقال :

ـــ لا بأس، فأنت مثلاً...

أدركت ما يجول بخاطره فقاطعته قائلةً:

ـــ أنا لا أحب أن أكون مثلاً للأخرين .

قال : أردت أن أقول إنك محظوظة،بل إن جميـــع الفتيـــات لهن مثل حظك في الحياة،...

قاطعته الحديث مرة ثانية لأنني فهمت المعنى الذي ذهب إليه فخرجت من فمي كلمات تعبر لا شـــعورياً عـــن الغيرة التي تكمن في داخلي، ولكنها لا تخلو مـــن الخبـــث فقلت:

ـــ وأنا أيضاً، كنت أظنك محظوظاً، لأن ما أنت عليه مـــن تفوق يتيح لك كثير من فرص اللقاء مع الزميلات، وكلهـــن ما شاء الله...

لم يندهش كثيراً عند سماعه هذا الإثراء، وكأن الأمر لا يعنيه . فقد تولد عندي شعور بالإحبـــاط، وأيقنـــت أن حديثي إليه لا يعدو كونه معابثة تحدث بين اثنين التقيا على مفرق طرق في وقت غير مناسب، واكتشفت مدى تورطي

في السؤال عن حياة هذا الرجل الذي بدا لي وكأنه يرتـــدي ثياب الحزن في حفل زفافه...

أجاب بما يشبه السخرية، أو كالـــذي وضـــع نتيجـــة لمسألة لا تغير في مضمونها ولا فائدة ترجى من الحـــديث عنها .

ــ ليس لهذه الدرجة،فكل ما أعنيه أن الزواج يعفي الفتـــاة بعض الشيء من مسؤليات كثيرة.

أضحكني حديثه، وذهب بي التفكير في منحنى آخـــر، وبقيت مذهولة لحظات، لأن هـــذه الشـــريحة مـــن النـــاس يتصفون بالطيبة . فتشعر بأنك قريب منهم . تطفح نفوسهم بالقناعة وعدم الرغبة في التحول عن الماضي، لأن لـــديهم الذرائع التي تعفيهم من السعي نحو مستقبل أفضل .

فقد استسلم كثير منهم للواقع المر الذي ينتمون إليـــه ،دون أن يرحموا أنفسهم من ندم لا مبرر له. فهم يعيشـــون مرحلة الإسقاط والتعميم، إسقاط الفشل وتعميم خيبة الأمـــل على الآخرين بلا استثناء... تلك كانت فلسفة التهرب مـــن

الواقع ،والجري وراء الخيال الذي لا وجـــود لـــه إلا فـــي الخيال...

أعرف أن أشياء كثيرة تجمعني مع حسام، ولكنني لم أتوقع أن نقف على طرفي نقيض . فأنماط النشاط اليـــومي متشابهة بحكم المهنة التي ستجمع شملنا في بوتقة واحدة، بل في شريحة واحدة من شرائح المجتمع ...

ولكن تمسكه بالراي الذي يتبناه، أذهلنـــي كثيـــراً. فالناس ينتظرون يوم التخرج كي يحتفلون بـــه، ويفرحـــون بقطف ثمار الجهد، وتسعدهم رؤية الحلـــم حينمـــا يصـــبح حقيقة. إلا حسام ،فإنه يخاف مجيئ ذلك اليوم، ويقف فـــي نهاية الصف الذي يجمع الفقراء في معزل عن عالم البهجة وكأن البهجة حكر على الأغنياء... فأنا لا أفهم لماذا يتخذ من الفقر واقعاً لا يمكن التحرر منه ومـــن البـــؤس معبـــداً يطيب له البقاء بين أركانه.

فكيف اختار هذا الواقع ؟

وكيف ساقته قدماه لهذا المعبد؟

ولماذا أصبحت وجهة النظر هذه شعاراً يستظل بها ؟

فلم تكن لديه الرغبة في صداقة الزملاء، بـــل كـــان يميل إلى الوحدة وهو لا يطيقها . وكأنما الخوف من الناس والإنطواء على النفس كانا الدافع لحب الكتمان لديه . فـــلا يحب أن يقف أحد على سره... فلعله مع فقـــدان مقاومـــة الفقر ،فقد الثقة بالنفس ،فلا ينقص هذا الشاب غيـــر إرادة تُغير وجهة نظره بالحياة،فيخلع قناع خيبة الأمـــل ويضـــع البسمة على وجهه ثم يبدأ بعد نعم اللـــــــه التي لا تعد ولا تحصى .

إنه يجهل فضل تلك النعم التي كانت ولا تزال كالهواء الذي يتنعم به في كل لحظة مـــن لحظـــات حياتـــه دون أن يخطر له أن يشكر اللـــــــه علي ما هو عليه .

لا شك أنه شخص لم يقدر قيمة نفسه في المجتمـــع، أعني المجتمع الجامعي ــ ولم يقف على واحدة من حكـــم الحياة، بل إن الفقر جعله يعتبر الدنيا عدواً يتـــربص بـــه

الدوائر، فتُعجزه الإرادة عن التمتع بالحياة كغيره لآنه يؤمن
بأن عسر الحال يقف له ولأسرته بالمرصاد .

ـ ٩ ـ

قد تكون المصيبة أعظم من حجمهـا، عنـدما يجـد الإنسان نفسه على شفير الهاوية ولا يستطيع منع قدمه مـن الانزلاق فيها . حيث يكون السخط على الـدنيا قـد أحكـم السيطرة عليه وأغلق منافذ الأمل دونه . ولكن الفقر لـيس إلا حالة طارئة يهزمها المرء بقـوة العزيمـة ،والتحلـي بالصبر ...

وعبثاً حاولت التمسك بالهدوء لاستيعاب أفكار حسـام .تلك الأفكار التي طالعني معها العجب ! واستعصى علـي فهمها واحتواء مضامينها ، حتى سـئمت تكـرار الحـوار وإعادة صياغة عبارات تفتقد إلى الروح والمعنى.

تنهدت بارتياح عندما وصلت إلى هذه النتيجة فلـيس من الصعب على حسام أن يتحدى الفقر ولو كان في أبشـع حالاته. ولكن الحقيقة التي وقفت عليها في هذا اليوم، كانت أبشع من الفقر وأعظم من اليأس وأكبر من الخيانـة . إذ

ليس من السهل على الإنسان أن تتلاشى من قلبـــه مـــرارة الشعور بالألم .

حينما غادرت المكان وحسام لا زال جالساً تحت ظل الشجرة ،كنت أردد الحوار الذي دار بيننا كأنـــه ســـيناريو لأحداث فلم هندي، بل إنه أغرب من ذلك . فقـــد أخبرنـــي بعلاقته الحميمة مع إحدى الزميلات، وكيف أنـــه انخـــدع عندما وقع في خاطره أنها تبادله الحب، فأراد أن يكون مـــا بينهما قائم على الصدق والوفاء، لأنها كانت التجربة الأولى في حياته ...

فأخلص في وده وأعطى الحـــب حقـــه مـــن الوفـــاء والصدق، ولكن الصدمة كانـــت عظيمـــة، فلـــم يســـتطع استيعابها لأن الشيء الذي جهله أن فرقاً شاسعاً بين الزمالة والحب... فحمّل نفسه فوق طاقتها، مع أن المشهد الـــذي حدث لا يعدو كونه سوء فهم من كلا الجانبين .

بودي لو كان باستطاعتي معرفة هذه الفتـــاة لأقـــف على مدى التأثير الذي علق بذهنها مما حدث ! فأنـــا علـــى

يقين بأننها نسيت . فليس من المعقول أن تعتبر الفتاة أنهـــا وقعت في الحب إذا تبادلت ابتسامة مع صديق أو ســـمعت صدفة ــــ كلمات غزل رقيقة !

فما زال الإشكال الذي أوقعته به الظروف يســـيطر عليه، لأن سوء التقدير وعدم معرفة حيثيات الموقف، أهم من اكتشاف الحقيقة التي لا يرضى عنها المـــرء ،عنـــدما يصبح غير قادر على تخطي الحد الذي يميز بين الحـــب والزمالة، ويفصل بين الحقيقة والوهم.

لو كان الأمر لا يتعلق بهذا الشاب ،الذي أكـــنُّ لـــه كثيراً من التقدير والإحترام لسلمت دون عناء بأنه الحب قد غزا قلبي . والحق أنني غير قادرة علـــى إصـــدار الحكـــم المناسب لتصنيف حالتي .

حيث يمنعني الحياء مـــن الاعتـــراف بحبـــي لـــه، ويتصدى لي الخوف من توقع نهاية لا يُحمد عقباها، فأقف حائرة بين أنفاس مخنوقة وقلب يأبى فقدان الشـــعور بـــأن

هذا اللقاء كان عمراً طويلاً وحلماً جميلاً ،تمنيت ألا ينتهي...

تفاءلت بهذا الشعور الذي انتابني، وتعجبت كيف تمضي بي الأيام، وأنا حبيسة في البيت أو أسيرةٍ بين الكتب ومدرجات الكلية ومعاملها ؟ لا أمنح نفسيشيءاً من متع الحياة، ولا أطلق العنان لعاطفتي تأخذ حظها كغيري من بنات حواء...

تساءلت كثيراً عن الفائدة من هذا اللقاء !

ربما كان الأجدر بي أن أقدم إليه المعلومات التي طلبها ، أو تسليمه مسودة المحاضرة كاملة دون التورط في هذا الجدل الذي لم أقف على فائدة منه، سوى مطالعة الصورة السوداوية التي تحيط بحياته.

فأخذت على عاتقي اعتزال الوحدة التي رافقتني زمناً أبعدني عن زملائي، والخروج من هذا الشعور الضبابي الذي يحجب العينين عن كل مألوف لدى الناس. وصممت على أن أجد لي دوراً فاعلاً في لجان النشاط تحت مظلة

الحرم الجامعي، كي تتاح لي فرصة المشاركة والتفاعل مع الطلاب.

فهالني الأمر عندما اكتشفت أن الجامعة ليست مكاناً يزود الطلاب بالعلم والمعرفة فقط، وإنما هو مجتمع آخر يتشكل من خلايا وبؤر ،ليس لبعض أعضائها صلة بالعلم، وليس لديهم أيما احترام للحرم الجامعي ،وحتى الصفات الأخلاقية ومراعات السلوك الأدبي ليس لها بينهم وجود.

فالحوار بينهم يحيد عن جادة الصدق ويجانبه الصواب، ويعتريه الحدة والإشتباك كما يحدث عندما يغلي الغضب في نفوسهم فتعبر عنه الأيدي والأرجل بما يناسب مقتضى الحال ...

فعدت أدراجي متعثرة بخوفي وارتباكي أبحث عن نفسي في الصومعة التي لا غنى عنها . وعشت لحظات الصراع والمقارنة بين طيش الشباب وسعادتهم، وبين بناء النفس وإعدادها للمستقبل .واحترت أي الأمرين أجمل وأيهما أهم ؟ وعزائي أن يوم اعتلاء منصة التخرج أصبح

قاب قوسين أو أدنى وأن خير سلاح تواجه به المستقبل هو شهادة وشباب لا زال في مقبل العمر .

وقفز أمامي طيف الدكتور، واقتحم علي أفكاري دون إرادة مني ،يعاتبني بعبارة سكنت قلبـــي قبـــل أن يـــدركها عقلي: إنك لن تجنين من الأيام أكثر ممـــا نحـــن بصـــدده الآن...فما برحت أقارن بين الأستاذ والتلميذ لأستقر علـــى رأي، فكنت كمن تجمع بـــين الشـــتيتين ،وتوحـــد بـــين المتناقضين، فلم أنته إلا إلى صداع كاد يفجر رأسي ويلقـــي بأفكاري في نفق مظلم.

ثم بدأت آخذ الأيام كما تعرضها الظروف أمـــامي، وأتقبل مصوغاتها دون إبداء رأي أو رغبة فـــي تغييـــر أو تبديل. وعاهدت نفسي على التغاضي عن أحوال حسام، فقد ثبت عندي أنه صاحب مزاج خاص .ورأيت أن خير وسيلة لهجر التفكير به هو الإنصراف إلى الكتب وإرهاق الـــنفس بالدرس والتحضير.

فاستقبلت الأيام الباقية من الفصل الأخير من الحيـــاة الجامعية،بأمل جذاب فظفرت بنوع من راحة البال لقــرب التحرر من عبودية المحاضرات والكتب . وهيـــأت نفســـي لحياة جديدة .

فأتاحت لي الظروف فسحة مـــن الوقـــت، فعـــاودت خواطري عن سعادة المستقبل ،وبدأت أُمني النفس بأجمـــل الأماني عوضاً عن سجن البيت وعناء الدراسة والتحضير.

ودرجت بي الأيام في دروب الحياة ،و نفسي خاليـــة من أي عاطفة تهز قلبي بعنف. فلم يكن من الســـهل علـــي التحول عن هذا الأسلوب الذي انتهجته في ممارسة الحيـــاة اليومية . فقد ألفت انتظار الأمل المرجو مُلوحاً في ســـماء الأفق البعيد، وتوقعت الخوف قادماً من رحم الغيب .

فقد خلقت منـــي الظـــروف إنســـانة تتفقـــد قـــدرتها واستعدادها قبل الخطوة الأولى . رغم أن الهواجس لم تترك لي منفذاً التجئ إليه ،لأن الدراسة كانت نزاعاً مستمراً بـــين عقل يُصاب تفكيره بالشلل أحياناً، ونفـــس اُبتليـــت بـــالقلق

والإضطراب ولا يقوى أحد على كـبح جماحهـا . إلا أن الأمر الذي لا يمكن نسـيانه أو التجـاوز عـن خطوطـه الحمراء، هو أنني لم أنس خطورة المرحلة التي تنسلخ من عمري ببطئ .

كنت أتعجل الحوادث كمن تخشى ضياع الوقت قبـل إنجاز أمر غير عادي . فأنا لا أنكر أنني كنت أبتعـد عـن اولئك الذين يبدون بي الإعجـاب ،ويعترضـون طريقـي بحركات صبيانية أو يسمعونني كلمات اعتاد الشباب علـى ترددها على مسامع الفتيات، لإيماني بـأن الوقـت غيـر مناسب، ولا يليق بطبيبة المستقبل أن تتخذ كل يوم صـديقاً جديداً . أما الآن، فأراني في حيرة من أمري،على الـرغم من السعادة التي أشعر بها بعد كل زيارة لمكتب الـدكتور ...

فلا شك أن الحب قد طرق باب قلبي بعنف ،وهز فيه المشاعر التي طال سباتها، فأدركت أن للحب طعماً لذيـذاً غاب مذاقه عن " لساني " زمناً مع أنه من أهم ضرورات

الحياة، وهذا هو الشيء الذي افتقدته طويلا، حتى وجدتني ضحية تغرق في طوفانه .

وتسابقت الأيام الباقية من عمر الدراسة لتبلــغ خــط النهاية. فكان من أعز مقوماتها تلك الومضـــات الجميلـــة التي تشبه الواحة الخضراء الرطبة في صحراء قاحلة . تلك الأيام التي مهما عاش المرء تبقى ذكرياتها صوراً جميلـــة تتراقص أمام ناظريه، وأحداثها تنطبع في عقله فتــأبى أن يطمس معالمها الزمن .

نعتز بها كثيراً فنتمنى لو أن رحلة العمر، تقف بنـــا في هذه المحطة فلا تفارقها أبداً ... إلا أن عمل الزمن قهر الناس وسلبهم ما علق بخيالهم من ذكريات جميلة.

ـ ١٠ ـ

ذهبت اليوم إلى المقهى ،يسبقني إليها ذهــن مشــتت وجسم مرهق، وأفكار تنفصل عن رأسي وتحلق بعيدا عــن أُفق خيالي . فالوقت لا يجود بلقاء حسام إلا في هذا المكان. فقد تغيرت مواعيدي تباعاً لتغير مواعيد المحاضرات .

عفواً، فإن البحث عن حسام أو عــن غيــره مــن المتفوقين والجري وراء لقائهم في هذه الأيام ،ليس من أجل متعة الحديث ورمانسية المكان، بل إنهم مراجع لتوضيح ما استعصى فهمه على بعض الزملاء إثناء دراستهم لــبعض المواد الهامة .

فنحن في الأيام الأخيرة من فصل التخرج، حيث أن الوقت ليس ملكاً لأحد، بل إن ما يهمن على النفس من رهبة وتهيب، يجعلان الإنسان غير قادر على إنجاز مــا يريــد بالطريقة التي اعتاد عليها . فكل شيء على وشك الخروج عن السيطرة ...

كان جالساً وحيداً ،يطالع كتاباً ،وكل ظني أن الكتاب وسيلة يجد فيها العذر ،كي يشغل نفسه عن الآخرين. جلست أرنو إليه بشغف، وأملي أن يلتفت نحـــوي ،فيرفـــع يـــده بالتحية على أقل تعديل. لا أرجو منه أن يدعوني لفنجان من القهوة . فقد شحنت نفسي بمزيد من الجـــرأة كـــي أكـــون صاحبة الدعوة هذا اليوم، لأنني بحاجة إليه كغيـــري مـــن الطلاب الذين يلجأون إليه في وقت الحاجة. وأنا على يقين بأن معزتي عنده تحظى بتقدير خاص ...

إلا أنه تشاغل عني بالكتاب وانصرف باهتمامه عن كل شيء حوله، وربما كان تفكيره خارج نطاق المقهـــى . كان الأمر في غاية الغرابة الاستفهام ! فليس مـــن عادتـــه الإعراض عن الآخرين في مثل هذا الوقـــت ،إلا إذا كـــان مشغولاً بأمر له نتائج سيئة، فالظن الســـيء يســـبق الفـــأل الحسن أحياناً . وهذا ما وقع في خاطري .فتمنيت أن يخيب حدسي.

وطال الانتظار ،والكتاب يفصل بيننـــا . لـــم ينفـــذ صبري، ولم يضق صدري ،ونصيحتي لليأس أن يرحـــل فليس له مكان عندي... فلا زلت بانتظار أن ينعطف رأسه نحوي بين لحظة وأخرى، ولكنه ما كاد يراني حتى تحول عني فيما يشبه الدهشة والذهول .وكأن وجودي سبباً لجملة ما هو عليه من ضيق.

لقد أيقنت أن تحولاً في الموقف قد حـــدث، رغـــم أن الأمور بيننا لم تكن على درجة كافيـــة مـــن الوضـــوح . فضايقني تصرفه كثيراً . فنهضت وغادرت المقهى ،وظلام الدنيا بأسرها يتزاحم أمام ناظري. وتولاني شيء أقوى من الحزن وأشد من القنوط لأني خشـــيب أن يكـــون حدســـي صحيحاً.

كان موقفي بلا ريب حرجاً، فبدأت المعركـــة مـــع نفسي في غير أوانها، فقد توقعت الهزيمـــة لهـــذه الـــنفس، فعندما تنهار أعصابي تحت ضـــغط الظـــروف ،تعـــودت لومها، وتحميلها نتائج ما يصيبني من سخط ويأس وإحبـــاط

وخيبة الأمل ... وما يلاحقني من متاعب البيت وما ألاقيـــه من تقلب أمزجة من يتقربون إلي أو أتقرب إليهم .

وداهمني الشك، فتساءلت عن سبب هذه الجفوة !

فهل كان حوارنا الأخير سبباً في ذلك ؟

لا، ليس هذا سبب فيه ما يكفي من الإقناع . فوجـــدت ميلاً شديداً للبكاء، فاستسلمت له، يقيناً مني أن الخلاص مما أنا فيه لا يكون إلا بالبكاء.

لم يكن في الوقت متسع لمزيد من الهدر والضـــياع . فالإمتحانات قد أزف موعدها، والأعصاب أصبحت مهيـــأة للتوتر، فيوم الفصل آت دون شك، فعند الإمتحـــان يكـــرم المرء أو..... أعوذ بالله من تكملة هذا المثل ، فهي مرعبة كالشبح، تثير الجفاف في الحلق، وتملأ النفس يأساً .

وما فائدة هذا المثل فقد انتهت الإمتحانات، ولا شـــك أن أعصاب الجميع تغلي،ونفوسهم تضـــطرب والإســـتقرار النفسي قد رحل عنهم . وكنت أستغرب ممـــا أنـــا فيـــه .

فأعصابي كأنها تسكن في ثلاجة، ونتائج الإمتحان لا تثير لدي الأعصاب ولا تحرك لدي ساكن. ومع هذا فإن إيماني بالنجاح كان قويا وباستطاعتي طرد الوحشة المخيفة التي تهيمن على من لا يملكون الثقة بأنفسهم .

تضاءلت فرص الذهاب إلى المقهى، فهناك أمورٌ أكثر أهمية من احتساء القهوة ،والخوض في أحاديث أكثرها دس ونميمة . لذا فقد كرهت هدر الوقت في التسكع بين الجامعة والمقهى . ولكنني لا أدري كيف ساقتني قدماي إلى ذلك المكان، فتساءلت عن سبب وجوده هناك، وربما تساءل هو الآخر عن سبب حضوري في هذا الوقت .

أردت كشف السر، فأدركت أن خسارتنا مشتركة، وأن إعجابي به في ازدياد ، فكنت أحب سماع كلماته التي يختارها بجرس كأنها نغم جميل، وأحب استعلاءه على الظروف التي حدثني عنها... حتى أن إعجابي به كان يثقل ضميري بالقلق ويملأ قلبي عجزاً، كلما مر طيفه بخيالي .

فكم كان الجلوس إليه يمنحني مزيداً مـــن الطمأنينـــة، وما أحسب أن وجوده في هذا المكان إلا هدية من السماء

فلا داعي لعدم الانتباه إليه، والتغاضي عن وجوده . تقدمت نحوه فحياني ثم عرفت من حرارة الترحاب أنه كان يبحث عني . ولاحظت أن الحديث في هذه المرة كان أكثر بعداً عن الدراسة ومشاكلها، وازدادت دهشتي عندما فاجأني بأدبه المعهود قائلاً :

ــ هل لديك متسع من الوقت ؟

كان السؤال غريباً، أثار دهشتي وجعلني من غير تفكير أقول نعم، حتى ولو كانت تنتظرني أعباء الـــدنيا وجميـــع مشاكل أهلها .

قال: لدي أمر أود طرحه بين يديك. فقد ثقُل علـــي حملـــه وساءني كثرة التفكير به حتى كاد يُفسد ما أعتز به .

قلت: لا بأس .

احمر وجهه وبدا عليه الإرتباك، فداخلني إحســاس بالخوف وتساءلت عما هو ذاهب إليه من هذا السؤال.

أضاف قائلاً : أرجو المعذرة عن تطفلي، ولكن لدي ســر أريد الإفضاء به إليك، ربما وقفت علــى أســباب تباعــد المسافة بين خطواتنا.

ومساحة الدهشة على ملامح وجهه وتمتم بكلمات غير واضحة المعنى ... فلم يُكتب لحديثه أن يستمر، ولم يكتب لتلك الجلسة أن تتم أيضاً، ولم يُفض إلي بالسر الذي يحتفظ به، بل ضمنه رسالة قدمها لي بعد تردد واعتذار، ثم اختفى تاركاً الرسالة تقبع بين يدي.

فلم أتمكن من دهشتي وذهولي من السيطرة على جملة المشاعر التي سرت بجسدي . فقد كنت مــأخوذة بفــوران أفكاري وغرقها في هول المفاجأة ...

وعبثاً حاولت الهدوء لاستيعاب الموقف، فتمنيت لــو كان بجانبي، يقرأ الرسالة بنفسه، فأنا على يقــين بــأنني لا أحسن القراءة مثله، ولكنني مع خوفي لعواقب ما تحتويــه

هذه الرسالة، فقد تجرأتُ ومزقت الغلاف بأصابع رفضـــت
طاعتي في بادئ الأمر وقرأت فيها :

....

بعد انتهاء الإمتحانات ،فاجأني الدكتور ... بدعوة لمكتبه . بدأ حديثه بإسلوب مهذب، يسيطر عليه التردد والخجل.

قال الدكتور : دعوتك من أجل سؤال أرجو أن تمنحني العذر، لأنه ليس من حقي طرحه عليك، ولكنه الأمل المرجو لأستاذ من تلميذه.

قلت : وقد تأكد لدي إحساس غريب بأنكِ أنتِ القاسم المشترك بيننا ،إذ ليس من العادة أن يطلب أُستاذ العذر من تلميذه عن عمل يجهله التلميذ، فقلت :

ــ بل إن إجابة سؤالك سوف تكون واجبا أتشرف به .

قال: نحن هنا رجلان، وليس أُستاذ وتلميذه، ومهما كانت اجابتك فلن تغير من رأي نحو طالب مميز، أكن له الاحترام وأُقدر أن له مستقبلاً باهراً، ولا أريد في نفس الوقت أن أسبب لك حرجاً، وكل ما أطلبه أن تصدقني

القول، فإنني أعلق على جوابك أهمية لا أقلل مــن أهميــة نتائجها على مستقبل أحدنا.

لقد ثمنت أهمية سؤاله في نفسي أكثر من الأســباب التي حشدها في عقله وأعظم من النتائج التي يتوقعهــا ... ومع يقيني بأن هذا السؤال لن يبشرني بأنباءٍ سارة تخصني، لأن في نبرات صوته وصيغته التساؤلية ،تأكيداً يمنح نفسه الراحة قبل سماع الجواب، لأنه وقف على أسباب الضعف عند تلميذه، ولا أود القول أن في ذلك استغلالاً لموقف مــا أحببت أن أكون طرفاً به. ومع هذا أكدت له صدق نيتي.

قال: ــــ اسمح لي أن أكون صريحاً ،فلا حاجة لمقدمة قد تعقد الأمور. فقد لاحظت اهتمامك بالطالبة .... ثم توقــف وبدا أكثر حرجاً وارتباكاً مني، بل ربما ظن أن بقية السؤال انتقلت لتلميذه بالإيحاء،الأمر الذي جعله يقول:

ــ لعلك الآن أدركت ما أعني .

خفق قلبي، واضطربت أعصابي ،بل تأكــد ظنــي، فعرفت أنك تحتلين مكان الصدارة في قلبه . لا أنكر بــأنني

شعرت بصدمة قوية، وداخلني عذاب لا يوصف، فقد تعذبت من أجله، وأكبرت فيه الصدق في الحب وثمنت شدة ولهه عليك .

قلت : ــ إنها طالبة مهذبة، تجلب انتباه الجميع .

قال بلهفة : ــ هل هذا كل شيء.

لا أنكر بأنني لم أكن صادقاً مع نفسي ،عندما قلت له نعم. لأنني فعلاً أحببت الخير لك ، لأن الاعتراف بعدم التكافؤ بيننا خير من جعل النفوس تنتظر أملاً من الاستحالة تحقيقه.

ارتخى على الكرسي ،وقرأت مظاهر الراحة على قسمات وجهه ولم يدر بخلده أن ذلك الجواب،كان حكماً بالإعدام، صدر على قلب استمرأ حلاوة الحرمان،...

وأجزم بأنني كنت صادقاً معه، فقد تبخر مني كل إحساس يولد الشك لديه... وتأكدت بعد ذلك بأن الضحية

بريئة من دمها ولكنها تشرب كأس العذاب حتـــى الثمالـــة، والجاني يراقب المشهد بدم بارد.

شكرني وأثنى على صدق مشاعري، ثم ساد صمت، فنظرت إليه وقد ظهر على ملامحه الارتياح، وتلاشت فـــي إذني كلمات لطيفة ودعني بها حتى باب مكتبه، كان آخرها ــ أرجو المعذرة، وأشكر تفضلك بالحضور، فلــن أنســى صنيعك أبداً .

كانت تلك أول وآخر زيارة لـــه، وبعـــد أن غـــادرت مكتبه شعرت بأنني ابتلعت العـــذاب قبـــل تـــذوق طعمـــه وختمت زيارتي بالهزيمة . ولكنني أعترف إليك بأن الحب لا يقدر إلا بالتضحية، مـــع أن التضـــحية تـــذهب ويبقـــى الحب...

حسام

ـ ١٠ ـ

قرأت الرسالة وأعدت قراءتها مرات، فقد نقلت إلي صورة نادرةً لعاطفة لم يُكتب لها أن ترى النور كي تعبر عن ذاتها، فآثرتْ البقاء خلف حاجز الحرمان... فكم كانت نفسي تواقة لمعرفة هذا السر، فهو الحقيقة الملموسة التي أبحث عنها لأعرف على أي برٍ أرسو.

فها أنا اليوم، يتأكد لدي صدق مشاعري ،ولا أدري بأي كلمات أصف هذا السر ؟ فإن قلت إنه يزف إليّ أجمل بشرى، فهذا عين الصدق، وإن قلت : إنه لا يبتعد كثيراً عن جملة من الأسى والحزن فأناصادقة أيضاً .

ورغم الأسى الذي خلفه كشف هذا السر، فإنني أشفق على هذا الشاب من أثار صدمة ثانية يتلقاها بنفس الطريقة وإن اختلف الزمان وتنوع الأسلوب . ولكنني أكاد لا أصدق أن يدفعني حظي العاثر إلى هذه النهاية، وأن أكون أداة تتصادم من أجلها عاطفتين، تكون الغلبة للأقوى وهي تلك النهاية التي تمنيتها فعلاً. ولم أحبذ أن يكون الاختيار

بيدي، حتى لا تكون سعادة طرف على حساب تعاسة الطرف الآخر، إذ لا مفر من الاختيار الصعب...

فهذا الشعور النبيل الذي ملأ قلبي، أو قل إن شئت " الإعجاب " كما تعوتُ وصفه "، فإنه شيء تحسه القلوب، فلا نستطيع وصفه أو الكتابة عنه بصدق،إلا بعد الفراق. والبكاء عليه وسيلة يلجأ إليها الضعفاء، يندبون الحظ العاثر، ويطهرون سنوات عمرهم بالحزن، ويخلعون خوف المستقبل من قلوبهم بالصبر...

ولكنها الخطيئة التي تعشش في الأذهان وتراودنا النفس بالعودة إليها، لأننا علقنا جميع العواطف والأحزان والدموع على مشجب جميل، اسمه الحب ... نعود إليه عن طيب خاطر عندما تشتعل القلوب بعواطف كبتها الزمن وأسكنها غياهب النسيان .

خرجت إلى الشرفة في ليلة من ليالي شتاء عمان عندما كان الشتاء يأتي بالخير، كان المطر ينهمر بغزارة فتجري المياه في السيول والوديان ... وظلمة ليالي الشتاء

حالكة السواد، فتسرب البرد القارس إلى جسدي فألمت بـــي رغبة قوية لصدر أمي الحنون، كي أدفن فيه رأسي وأبثهـــا همي، فلا شك أنها سوف تشاركني البكاء، وتحنـــو علـــي باللائمة.

لقد جافاني النعاس، فلا رغبة عندي للنوم في هـــذه الليلة، فهي ليلة لها حساب خاص، فأنا مطالبـــة بالحســـم، واتخاذ القرار الذي يلزمني العمر كله باحترامه والسير على منواله . أم إنني غير قادرة على إبداء الرأي، ولا أصـــلح لتقييم أمور حياتي!

استدرت كي أغادر الشرفة، فانفجر الغضـــب فـــي صدري، إنني لا أحسن التركيز، فلمـــاذا تســـتنزف هـــذه الرسالة تفكيري ؟ فقد اعترف حسام بإرادتـــه أن لا شـــيء بيننا، وإنني مجرد طالبة مهذبة تجلب انتباه الجميع ،وهـــو أحد أفراد هذا "الجميع"...

ولكنه اعترف بأنه ابتلع العـــذاب قبـــل أن يتـــذوق طعمهه، ثم أقر بالهزيمة ...فما الفائدة من التفكير وضـــياع

الوقت إذاً ؟ وقد تخلى عني في أول فرصة كان عليــه أن يتحدى كل الظروف كي يتمسك بمن يحب ويدافع عن حبه، هذا إذا كان الذي بيننا حقيقة تلزمه الوفاء . أما وإن كــان ما يشعر به عكس ذلك، فلا بد أن الذي بيننا كــان مجــرد شعور غامض، يتوارى خلف ستار من التردد والضعف.

يرهق أعصابي هذا النحو من التفكيــر، ويســحبني خلفه إلى عالم مجهول، لأستقر فيه بين صوامع المبتهلــين إلى ربهم وأكواخ الهاربين من وجه العدالة. فلــيس ثمــة علاقة بينهما ،بل إن التنافر وعدم الإنسجام قائم بينهما، مع أن واقع الحال بين هذين الفصيلين يفرض نفسه حتى ولــو كان اللامنطق يغتصب الحقيقة عنوة .

فالكراهية تتغذى من وجود الإنسان فــي مكــان لا يحب أن تطأه الأقدام .وينمو التمرد فــي الجســد عنــدما يستحيل تحقيق رغبة تسير معــه بخــط مــواز يســتحيل الاجتماع بها .

فتمنيت أن تطول وقفتي في الظلام، أناقش نفسي وأقيم موازين الربح والخسارة، وأبين الفرق بين الحقيقة وأحلام اليقظة، فربما أنجح بعض الشيء في مهمتي، مع أن الفرق واضح لا يحتاج لدليل. فكلنا يدرك أن الحقيقة تكون مُرة أحياناً .

أما أحلام اليقظة، فهي الأحلام الجميلة التي تشبه فتاة بديعة الجمال تسكن افق الخيال، ترنو إليها الأبصار بدون عناء او تحفظ، ولكن الأقدام تكل قبل الوصول إليها...

أحببت أن أختبر نفسي على الصبر، أو ربما أردت أن اعاقبها، لأنها ترى الحقيقة عارية ولا تحب أن تكسب الأجر والثواب بالتغاضي عما ترى من العيوب . إذ أنه من الخير أن لا ينكشف المستور دفعة واحدة، فمن جمالية الموقف أن لا تتعرف على الجزيئيات مفصلة من النظرة الأولى،بينما يدفعك الشوق لاكتشاف ما يبدو للعين بعد تجمع هذه الجزيئيات .

ورغم استعجال الفكر وجوعه، فإن التأجيل والتـــأني لهما متعة من نوع آخر، قد لا يدركها مـــن تحرقـــه نـــار الانتظار . وأن الغلو في الصبر امتداد لخسارتنا وحرمانـــاً لأنفسنا من التمتع بالإيقاع الجميل الذي تهفو إليه الآذان ...

لأن وجـــودك خـــارج حـــدود الخـــوف يمنحـــك صلاحيةالاختيار، ويدفعك للسير فوق الآم الحزن ،رغـــم استحالة نشوة الفرح . فالأقوياء يمارسون اليأس بروح تأنف مهانة الحزن ولا تعترف بمرارة الألم .

أشرقت شمس يوم دافئ جميل، تزف البشرى والخير للناس .ولكنني لم أفق مبكرة كعادتي في كل يـــوم . كانـــت الساعة تقارب الحادية عشرة . الوقت متأخر جداً . لمـــت والدتي وعاتبتها لأنها تركتني نائمـــةً حتـــى هـــذا الوقـــت المتأخر، ولكنها بادرتني بضحكة اشبه بزغاريد الأعـــراس، عندما تخرج العروس من بيت والدها ،ثم أخذتني بأحضانها وانهالت عليّ تقبلني بحرارة وبشائر الفرح تمـــلأ وجههـــا وقالت:

ــ مبروك يا ابنتي، ألف مبروك يا دكتوره، لقــد عرفــت النتيجة منذ الصباح الباكر .

قلت : من أخبرك بذلك ؟

قالت : لم يذكر اسمه، رغم تكرار الســؤال عليــه، وانمــا اعتذر بكلمات رقيقة، وقال سوف نتعــرف عليــه عنــدما يزورنا قريباً .

جملة يحمل مضمونها ألغازاً أكثر من حروفها ... إلا أن الأم بحدسها وعاطفتها لا يستعصي عليها إدراك ما تعني مثل هذه الألغاز ... لذلك كان وجهها يطفح فرحاً ويمــتلأ صدرها أملاً.

أما أنا فقد أشغلتني الفرحة بالنجاح عن التفكير بأشياء كثيرة ،تنتظر مني الإنجاز في هذا اليوم، وأخذتني بعيــداً عن كل شيء . فأحببت أن أبحث عن وسيلة أعبر بها عــن فرحي، كي تنقل إلى الأصدقاء ما يختلج في أعمــاقي مــن سعادة.

وكنت أحلق خلف أفكاري التي جمّدها زمن الدراسة بين صفحات الكتب والمحاضرات ... فأحببت أن تتفتح شهيتي لهذه الفرحة ،التي طالما انتظرتها طويلاً . إلا أن هاجس هذه المكالمة التي تلقتها والدتي هذا الصباح، كان يطوف بخيالي ويفرض علي تغييراً في مجرى أحداث هذا اليوم السعيد، ويتيح الفرصة لعلامات الإستفهام أن تستأنف نشاطها من جديد .

وعاودني سؤال وحيد ما فتئ يحاصرني باحثاً عن جواب ربما يُسكت الحيرة التي أعيشها .

ـ هل حسام هو صاحب هذه المكالمة ؟

ربما كان حسام صاحب هذه الكلمات فعلاً، لأنه يحب الاختفاء وراء الأحداث. ولكن هذا الإحتمال بعيد عن الواقع . فقد يأتي هذا الخبر من أي مصدر إلا حسام ، فالدافع لمثل هذا العمل ربما فتر عنده ، إن لم يكن تلاشى بعد لقائه مع الدكتور بسام ... وإن كانت هذه المكالمة من أحد الزملاء،

فلا أظن أن احداً يعرف رقم هاتفي، فكل واحـد مشـغول بنفسه.

إذاً لم يبق أحد يهمه أمري سوى أُسـتاذي، صـاحب الدعوات الكثيرة والإهتمام المتزايد، الذي كنـت أحـس أن تدخله في حياتي من الأمور الطبيعية التي تشـبه صـفحة كُتبت على طريقة برل، فلا سبيل لقراءتها إلا بتلمس كـل محتوياتها للتأكد من الحقيقة...

وكنت أشعر بأنني أعيش لحظات السعادة لمعرفتـي أن هناك فرقاً بين الوهم الذي يسيطر على عقـول بعـض العاشقين، والخديعة التي تنطلـي علـى مشـاعر اُنـاس آخرين... فكيف أجد تفسيراً مناسباً لكثرة الجلسات خلـف أبواب المكتب المغلق، والقلوب تزداد لهفة وشـغفاً ... إذاً لا مجال لإتاحة الفرصة لخيبة الأمل كي تطل برأسها فتعكر جو الفرح ... فإننا لا نحسب للندم حساباً ،عندما تـرقص أفئدتنا على إيقاع السعادة.

ومع أنني فرحت كثيراً لهذه البشرى، إلا أن غموض هذا الشخص حيرني، ولا أخفي عليك ،فإنني سعيدة بهـذه المكالمة المجهولة، حيث رفرف جو من الفرح على قلبـي لأنني توسمت الخير من تلك الزيارة المتوقعة...

ودفعني الشك لافتراضات كثيرة، ولكنها لم تبتعد كثيراً عن عن أستاذي ومعلمي الدكتور بسام . والغريـب فـي الأمر تحديد موعد الزيارة . وبدأت أركـز تفكيـري فـي الدكتور .

بعد الحديث الذي دار بين الـدكتور وبـين حسـام أصر الأخير على الإيفاء بتحمل مسؤولية أعباء اُسرته ، التي حرمت نفسها من أشياء كثيرة من أجله ،وعليه أن يبدأ مشوار العمل الذي قد يطول وقد لا ينتهي .

حاولت أن أجد عذراً يفصل بين حسام وأهلـه، ثـم جعلت الأيام تعرض نفسها في خيالي يوماً بعد يوم، حتـى جاء دور الجلوس معه تحت ظلال الأشجار ،التي تحتل من الحرم الجامعي النصيب الأوفر . لم يتكرر ذلـك اللقـاء،

ولكن الجلوس إليه كان يجعلني أعيش معه بقلبي وعقلي . وكثيراً ما كنت أجعل من نفسي طرفاً آخر، أناقشـها فيمـا أقدم عليه، وكنت أسلم بالنتيجة الخاسرة دومـاً . وخشـيت يومها أن يكثر الكلام ،وتحوم حولنا الشبهات، فاتخذنا مـن المقهى مكاناً نلتقي فيه دون خوف أو حرج .

وأخذت الأيام تدفعنا بقوة الجذب حتى نقص ما بيننـا من بعد ،وتلاشت المسافة التي تفصلنا عن بعض، وكأننـا اتفقنا بما نشعر به من سعادة على ترك الأيام تمضي كمـا تشاء، كما لو كنا حبيبين لا يشوب حياتهما هم ولا غم، ولا نفكر بيوم تكون التضحية بالحب واجب،يؤديه طرف علـى حساب الطرف الآخر ...

و كنت أشعر بأنني لا أختلف كثيراً عن كبش الفداء، لآن ثغرة بدأت تتسع في محيط حياتي، عندما تأكدت بأنني أحب رجلاً وأعجب بآخر . وضقت ذرعاً مما احـس بـه، وداهمني دوار شديد جعلني بحاجة للإسترخاء ،والتفكير في هذا الأمر ،الذي يترصدني ولا أستطيع الهرب منه .

فلا شك أنني فقدت عنصرالاختيار، وبــت مســلوبة العقل، هالكة النفس، مدمرة الأعصاب، عاجزة عن اتخــاذ قرار صائب يخرجني من صراع نفسي كاد يفســد علــيّ حياتي، فأنا لا أطيق الغش، فكيف أغش من أحب وأتملــق من أعجب به ؟

ربما غفر لي أحدهما ،ولكنني كرهت هــذه الثنائيــة، وأخشى أن أكره نفسي وما تنطوي عليــه مــن أســرار لا يعرفها أحد سواي . لأن فقدان الإنسان لنفسه أفدح بكثيــر، من التظاهر بسعادة أغرقها الوهم وألبستها الخديعة أثوابــاً زاهية الألوان . فمن الخير لك أن تعيش على ذكرى عزيز مات قبل أن تصدمك خيانته...

أما الدكتور فقد حدثتك عن تكرار الدعوات"الرومانسية " لمكتبه، لأسباب ليست على درجة من الأهميــة، وكنــت الاحظ انفعالات وجهه وارتباكه في الحديث، الأمــر الــذي كان يزرع الثقة في نفسي بعد كل زيارة، ويجعلني أتوه في خيالي، أبني بيت السعادة الذي أتمناه حجراً فــوق حجــر،

وأسارع في إغلاق النوافذ على عاطفة تنمو ويتغير طعمها، حتى غدت ألذُّ من طعم عاطفة صدر الأم لوليدها.

وخشيت على هذه العاطفة التي تتفجر في جسدي كالبركان، أن تكون مثل رغبة تسري في جسد امرأة أخذت تعد لزوجها سريراً وردي الأحلام، بعد أن أمضت سحابة يومها تعد له طبقه المفضل.

وعندما يأتي المساء ينصرف هذا الزوج عنها في قراءة الصحف ومشاهدة نشرات الأخبار، متنقلاً بين الفضائيات ،وكأنه لا يبحث إلا عن ضياع الوقت .فتصدمها المأساة، لإكتشافها أن الزوج يمارس معها لعبة الإهمال .

وكان أملها أن يشاركها الحياة الزوجية ،التي قرأت عنها الكتب ورسمتها في خيالها، لا أن تجد نفسها عبدة عليها تلبية رغباته في الوقت الذي يختار ولا يبقى لها نصيب من المشاركة الزوجية سوى الجوع والإنتظار...واجبها أن تسعده دون أن يكون لها حق المطالبة بشيء ما ولا فرق عنده بين الزوجة وربة البيت.

صدمتني هذه الرؤيا وإن كانت مجرد خيـال طـرق أبواب فكري. فخفت أن تكون حقيقة تسكن العقـل البـاطن فتقفز للواقع بعد الزواج ... فلا أعرف لماذا تراودني هذه الأفكار ؟

ولا أعرف كيف طرقت أبواب عقلي وتسربت إلـى خيالي ؟ فشعرت بأنها تفسد فرحي، فسارعت إلى طردها من رأسي، فلا مجال في هذا اليوم إلا للفرح ...

ـ ١٢ ـ

غسلت وجهي بماء بارد كالثلج، كي أطرد الخمــول والكسل من رأسي . وألقيت على جسدي أول فستان وقــع في يدي، ثم جلست أتناول الطعام في عجالة من أمري، ثم غادرت البيت وأنا أفكر كثيراً بصاحب المكالمة المجهولة؟

وكنت مذعورة من ذلك الخيال الذي راودنـــي، أكـــاد أصطدم بالناس دون أن أراهم أو أســـمع ضـــجيجهم فـــي الشارع. وطاف فكري بجميع الزملاء، إلا "هو" فقد بقـــي طي الغيب، يشغل مساحة كبيرة من التفكير ،فلـــو لا أن أمري يهمه كثيرا ،لما أجهد نفسه فـــي معرفـــة النتيجـــة، وحمل نفسه مشقة إبلاغ من يهمه أمري كثيراً بذكاء وفطنة.

لقد عرف الطريق الصحيح لقلب والـــدتي وعثـــر بالمفتاح المناسب الذي لا يجود الـــزمن بمثلـــه فـــي هـــذه الحالات إلا نادراً. والغريب أنه يود زيارتنا مع "والدتـــه" فهل هي طلاسم، ليس لها من حل ؟؟

لا حاجة لتعقيد الأمور ،فهدف الزيارة واضح ... فقد زُرعت هذه الرغبة في قلوب الأمهات قبل أن تنمو العاطفة في قلوب بناتهن لأن الغرائز البشرية هي الدافع لمثل هذه الحالات والكفيل بنموها ورعايتها ... فلم تكن نتيجة الإمتحاناتها وحدها التي تشغل بالي، فقد أيقنت من النجاح يوم انتهيت من آخر امتحان، بل إن التقدير هو الأهم من كل شيء، يضاف إلى ذلك معرفة من بلغ والدتي خبر نجاحي قبل أن أعرفه بنفسي .

لبثت وقتاً طويلاً متكئة على الحائط القريب من لوحة الإعلانات بانتظار أن تتاح لي فرصة البحث عن اسمي دون فائدة. .وكأنني لم أعرف النتيجة، بل إن العناء في البحث عن الاسم بين اسماء الناجحين له طعم آخر .

كنت أنتظر والقلق يسيطر على جميع حواسي ومشاعري،وكان الشوق يدفعني بقوة لأبحث عن اسمي بلهفة بين الأسماء، بعيداً عن قائمة تقدير " الامتياز" لأنني أعرف نفسي، فلا بد أن أكون على رأس قائمة تقدير "جيد

جداً" فهناك مكاني، إذ رحم الله امرءاً عرف قـدر نفسـه، ودققت النظر مرات ومرات، وفي كل مرة يخيـب الظـن، ويضيع من أمام عيني الهدف الذي أبحث عنه، وكدت أقـع على الأرض ذعراً ويأساً .

فلا مكان لإسمي بين أسماء هذه القائمة، وحتى القائمة التي تليها خلت من اسمي ،وكذلك فعلت في بقية الأسـماء بغض النظر عن التقدير مهما كان نوعه .

كنت بحاجة لأجد اسمي فـي أي قائمـة وتحـت أي مسمى، قبل أن أصبح بحاجةٍ لمن يسندني ويمنعنـي مـن السقوط على الأرض فلا بد من خطأ حـدث، وأي خطـأ هذا، فهذه ليست نتيجة مدرسة ابتدائية، فهناك لجان المتابعة والتدقيق وجيش من العاملين، ليس من المعقول حدوث مثل هذا الخطأ القاتل. فأين اسمي إذاً ؟!

وغاب عن ذاكرتي أن لوحة الأسماء لها بداية .وعلى المرء أن يبدأ البحث عن اسمه من رأس القائمة . وبـدأت البحث من جديد، ومرة ثانية، وجدتني ـــ يا ضعف قلبـي

ــ لا بد أن أتماسك، كي لا أطير من الفرحة أو أسقط على الأرض. فإذا بمرتبة الامتياز التي زين اسمي رأس قائمتها جعلتني بلا شك معيدة في كلية الطب، وهذا الهــدف الــذي أشقيت نفسي من أجله.

فالإنسان الطموح يجب ألا يقف طويلاً عندما يحقــق أول أهدافه، فكل مرحلة لها طموحها وأمالها التــي يعــيش الإنسان من أجلها . فقد كان هذا هدفي ،وقــد تحقــق الآن والحمد لله.

قد يخطفك النجاح من أفكارك، فلاتشعر بمن حولــك رغم مجاملتهم لك ومشاركتهم فرحك . إلا أن النجــاح لــه طعم آخر وحس مختلف ...

كنت أقف أمام لوحة الأسماء، سارحة بأفكاري إلــى البعيد، حيث لا يسبقني أحد في التحليق في سماء الأحــلام الجميلة... وبكل صدق فقد نسيت نفسي في هذه اللحظــات التي يصعب على المرئ وصفها ،ولم أنتبه إلا ويد تربــت

على كتفي برفق، كي أفسح لصاحبها مجالاً للبحث عن اسمه.

فكم بعثت هذه اللوحة الأمل في النفوس في نهاية كل عام، وكم خيبت آمال آخرين . لم يشغل بالي في تلك اللحظة شيء، فقد أحببت التمتع بطعم السعادة .. فتلك اللحظة لا يعرف طعمها إلا من أصاب حظاً من النجاح .

لم يمض كثير من الوقت، حتى التأم شمل الزميلات مع زملائهن، وقل إن شئت تجمع الأصدقاء، وربما أحببت أن تقول التأم شمل الأحباب . فأنا لا أعتب عليك، بل أقف مؤيداً لرأيك لأنه يعبر أصدق تعبير عن موعد أبدع الخالق في تحديد مكانه وزمنه من غير تنسيق أو ترتيب .حيث وقف كل واحد إلى جانب من يألف ويأتنس بحديثه...

ولعل هذه اليوم هو أسعد ما يتمنى المرء .كنت أقف إلى جانب إحدى الصديقات، وكان الحديث بيننا ليس له حد ينتهي إليه،ولا يتناول نزعة خاصة، فكل شيء في هذا اليوم أقل أهمية مما تم إنجازه ...

وكانت الفرحة تملأ علينا الدنيا سعادة وأمـــلاً عنـــدما لمحت حساماً، يقف وحيداً كعادته- لا يشـــارك الآخـــرين فرحتهم وسعادتهم. فكأنما سُرق منه الفرح فاستحال أمـــره حزناً في وقت لا مكان فيه للحزن...وحسام هـــذا ــ كمـــا تعرف ـــ له مكانة في قلوب الجميع، فليس منـــا مـــن لا يثمن له موقفاً جيداً، فهو صاحب صنيع طيـــب، وصـــاحب تقدير واحترام لكل من يعرفه، إنه المتفوق دائمـــاً الـــذي لا يقبل منافسة أحد، ولا يبخل على أحد بالعون والمساعدة عند الطلب .

فلماذا الوحدة في هذا الوقت بالذات ؟

ولماذا الحزن والتفكير ؟

لماذا وألف لماذا يا حسام ؟

فأنت لست مطالب بحل مشاكل الفقر والجـــوع فـــي العالم الثالث، ولن يطلب منك أغنياء العالم أن تجـــد لهـــم وسائل يقضون بها على الفراغ والملل الذي يعيشـــونه ... فليس من المعقول أن تفكر وحدك، فعليك أن تفرح وتشارك

الآخرين وتشعرهم بفرحك فالتفكير في هـذا اليـوم لسـنا مسؤولين عن نتائجه وعما تؤول إليه هذه النتائج . ولـيس من حق أحد أن يرشدنا من أين نبدأ ؟

أو بأي أسلوب نتعامل مع هذا الحدث ؟

وإلى أي نهاية تسير بنا الطريق؟

لا فرق في الإجابة عن هذه التساؤلات، فرحلة العمر تبدأ بخطوة واحدة، أما وسائل التعبير عن الفـرح فشـيء مختلف. فهذا اليوم ليس كغيره من الأيام...

من حقنا أن نطير مثل العصافير فرحاً...

وليس من المهم أن نُحلق في عالم السعادة، أو تلقي بنا الحياة في الحواري المتربة، ذات الأزقة الضيقة، حيـث ربما تمتع ساكنوها بالسعادة التي يفتقـدها أهـل القصـور العالية، هذه الظواهر لا يعنينا أمرها بقدر ما نكون قادرين على تلمس الموقع السليم لأقدامنا ،حيث إن اختيار الطريق أهم من التعثر في دهاليزه ...

فنحن لا نعرف ما تخبئه لنا الأيام، ففي كثيــر مــن الأحيان يكمن وراء هذه الأيام التي نحب، ضباب كثيــف، السير فيه مخيف، والتفكير بالخروج منه مســتحيل ... فلنعش هذا اليوم بلا تفكير، بلا تأمل، فقط، علينا أن نمــلأ الدنيا فرحاً .

وعندما ذهبنا إليه ألفيناه إنساناً تملأ الفرحة والســعادة قلبه، وليس حزيناً كما تخيلنــا أو ظننــا . فــإن الفرحــة والسرور والسعادة ليس لها مقاييس موحــدة لــدى النــاس جميعاً، فكل إنسان له أسلوب، يعبر به عمــا يجــول فــي خاطره ،ويرسم الصورة المناسبة التي تعبر عــن حالتــه ، فكثيرون الذين تكون سعادتهم رقصاً وغنــاءً، وأخــرون تكون السعادة لديهم عطاءً جديداً يحثهم على بذل المزيد من العمل ...

أما صاحبنا فلم يكن مفهوم السعادة لديه حفلــة تقــام، وموسيقى تعزف ليرقص على نغماتها الســعداء،أو طعامــاً يقدم للسادة الضيوف وأتباعهم .لقد كان ذلك واضــحاً مــن

حديثه وردوده المختصرة على أسئلتنا ،وعدم استجابته لأي من الدعوات العديدة، إذ ليس من عادتـــه قبـــول شـــيء لا يستطيع رده أكثر قدراً وقيمة . قال بحياء وخجل :

ــ كيف يكون بمقدوري دعوتكم لحفلة والحفلات ليس لهـــا مكان في قاموس حياتي ؟

قلت : ليس من الضروري أن تدعونا لحفلة فنحن نعـــرف و....

فقاطعني قائلاً:

ــ إذاً تعرفون فقري، وتعرفون ....

فاستدركت الحديث وانا خجلة منه، تغمرنـــي موجـــة مـــن الأســـف، لأن التعبيـــر الصحصـــح خـــانني فوقعـــت بالمحذور...فلا بد أنه ازداد حنقاً وغضباً من هذا التصرف، وإنني أوقعته في الحرج الذي يهرب منه ويخشاه، فلا يريد أن يعرف أحد سبب العزلة التي فرضها على نفسه ...فكبر عليّ في تلك اللحظة تمسكه بموقفه وانكاره لفرحة مشروعة

طال انتظارنا لها . وساءني منه الإصـــرار، فهـــو غيـــر مسؤول عن الفقر الذي يعتبره العائق الوحيد الذي يقف لـــه بالمرصاد.

وكأن حديثي إليه أحدث شرخاً في مشاعره، إذ يبـــدو لي أنه لم يسبق له التحدث إلى فتاة قبلي على انفراد ، ولم يجرب أسلوباً يعبر به عن مشاعره ويكشف عن عواطفـــه التي أحبطتها الظروف وألزمها الفقر صمتاً أبدياً ...

ولا أظن أن أحداً من الزملاء يعـــرف بعضـــاً مـــن أسرار حياته مثلي. لقد اعترف لي بذلك أثناء ترددنا علـــى المقهى . ولكنه كان يرفض الدعوة أحياناً ،فأعرف أن خلو الجيب من النقود هو السبب لعدم قبول الدعوة، فأيقنت أن الأسى يُخلق من رحم الإبتسام ...

فعاتبت نفسي لعدم إدراكها لواقع تعرفه، ولمت عليها تسرعها واندفاعها وتصرفها غيـــر اللائـــق ،وتأكـــدت أن الرمز يجب أن يكون مثالا يحتذى، فلا مجال لتجريحـــه أو النيل من هيبته .

فقلت : آسفة ،فليس هذا ما أقصد، فأنت تعرف قصدي .

وبعد صمت ينم عن تصميم قال:

ــ إن أردتم أن تقدموا لي صنيعاً لــن أنســاه، فــأرجو أن تعفوني من هذه الدعوات .

فأخبرتني عيناه، قبل أن أفوه بكلمة واحدة ،بأنه فقير، عصامي الإراده، تسيطر عليه تقاليد تصر على شد وثاقــه بالأسرة، رغم أنه إنسان متفائل يترصده اليأس على هوامش الطرق ،وأنه من هواة الانتظار ،طال أم قصر.

وكنت أعرف أن لي عنده تقديراً خاصاإن يميزني عن الآخرين،فاستمر حديثي إليه بثقة ٍ تؤكد تحقيق النتيجة قبــل الإقدام على الطلب .فقلت:

– لا مفر ، ولن نفرح بدونك .

فسكت ،والسكوت عند بنات حواء علامة الرضـــى ، ولكنه عند الرجال يحمل الإبهام والغموض، وكأنه يقــول " حكم القوي" مع إيمانه بأن السكوت لا يعني القبول والرضى

في جميع الأحوال. ذلك إن ما تنطوي عليه النفوس أعمق مما يظهر على ملامح الوجوه، وقراءة أفكار الناس لا يجيد استطلاعها كثيرون حتى ولو كانوا من ذوي الاختصاص...

فلم يكن من السهل التحكم بالظروف التي تعترض السبيل، فتشل الحركة وتجرد المرء من إرادته . فقد تأكد لدي أن النجاح في الإمتحانات ،ليس إلا خطوة قد لا تكون فائدتها كبيرة،لأن الأمور الهامة التي تلي النجاح ،يعتبر تحقيقها في بعض الأحيان درباً من المحال . فالمعاناة التي يعانيها الإنسان قبل الوصول إلى أهدافه، لا تثمن قيمتها إلا بتحقيق الهدف نفسه...

ولكن دعنا نترك الأيام تمضي على هواها فإن من العجب أن المتعة التي تنعش أنفسنا ،نغتصبها من قسوة الحياة نفسها وإلا كان الإحباط والإكتئاب يدبغان الحياة بطابع اليأس والقنوط ويتلاشى من أفق حياة السعداء ما يسعدهم، ويخيم علينا شبح الخوف من مستقبل مجهول.

ومضى أُسبوعان بعد إعلان النتيجة ،ترددت خلالهمــا على كثير من أقسام الجامعة لإنجاز معاملاتي. فقــد كــان الاختلاف في المعاملة، والمعاناة من عدم الرضى، طــابع تلك الأيام . فلم يكن من السهل نسيان ماحدث فــي هــذين الأسبوعين .فقد تعرفت على شريحة جديدة في المجتمــع، يتحكم في تعاملها مع الأخرين مزاجية في روتين العمــل . تجعلك تقف حائراً بين سلوك الإنسان وطبيعة عمله...

فلم أتوقع ذات يوم الانتظار الطويل ريثما تنهي موظفة الإستقبال التحدث بجهازها النقال، فلما أشعرتها بوجــودي أغلقت الجهاز بعصبية وأخذت تنظر إليّ والإنفعال ظــاهر في حركاتها وعلامات الإستفهام ترتسم على وجهها . أنا لا أريد منها مزيداً من الإهتمام بشخصيتي، بل أطالبها بتحمل مسؤولية وظيفتها واحترام الآخرين .

وأخيراً كان لا بد من تلبية الدعوة التي تلقيتها مــن صديقة أصرت على الاحتفال بالنجاح . فذهبت إلى بيتهــا،

وكان الوقت أصيلا، أشعة الشمس تختفي وراء تلال مدينـــة عمان وجبالها رويداً رويدإن ،

وسكون الليل يطرق أبواب السماء،

وكأن البدر في هذا المساء أراد أن يبدأ مهمته مبكراً، فأطل من وراء الأفق يرسم بسحره لوحةً جميلةً على سطح الماء في حوض السباحة الذي تنعكس عليه الأضواء مـــن زوايا الحديقة المترامية الأطراف،

ونسمة المساء تصاحب نور القمر ،وتعزف من حفيف أوراق الشجر لحناً جميلإن يداعب الشعر المنســدل علـــى أكتاف هؤلاء المدعوات ...

كان المنظر جميلاً وأجمل ما فيه ،أنني أكتشــف لأول مرة أن خريجات كلية الطب لسن مجتهــدات فقــط، بـــل جميلات أيضاً ... وتوافد المدعون واكتمل الحضور أو كاد، وامتلأت المقاعد التي انفردت فوق العشب الأخضر، وتحت الأشجار .

وفي إحدى زوايا الحديقة جهاز تنبعث منه أنغام هادئة، تم اختيارها بذوق، كي تناسب الزمان والمكـــان، وتكـــون وسيلة تريح الأعصاب.فأنت بحاجة لسماعها على الرغم من انشغالك بالحديث مع من تجالس .

وحاول كل من حضر الحفلة هذا المساء أن يجـــد مـــا جاء من أجله. فقد انشغل الحاضــــرون بعضـــهم بـــبعض .وكأن الناظر لهذه الحديقة يمعن النظر في كتاب مفتـــوح، يقرأ كل واحد لجليسه ما يحلو له من صـــفحاته ويخاطبـــه بكلمات يرسلها همساً لذيذاً ...

وكأني بذلك الشاب يعبر عن عواطفه لمن تجالسه ،أو لعل ذلك الشاب يعاتب أو يلوم، وربما كانت ملامح وجـــه تلك الفتاة تعبر عن جملة من السعادة والفـــرح، حتـــى إن بعض الأساتذة الذين لبوا الدعوة نسوا أنفســـهم، فاكتســـت وجوههم بالسعادة والفرح إذ ليس من السهل قراءة أفكـــار الجميع، إلا أنها أفكار بلا شك، جميلة الملامح . فالإختلاف في تفسيرها وارد دائماً.

ورغم النشاط ألذي أبـــديت ،والحركـــة الدائمـــة بـــين المدعوين، ومحاولة مشاطرتهم الفرحة والتحدث إليهم ، إلا أنني كنت دائمة النظر إلى الباب، أرقب قادما لـــم يكتمـــل العدد بدونه، وتكون الفرحة مبتورة بدون مشاركته...

وكأن سوء الظن بالفرح يقف لي بالمرصـــاد، ويمنـــع تسرب البهجة لقلبي، ويهـــزم اســـتعدادي لهـــذه المناســـبة بانتظار ممل ٍ قاتل، فالاحتفال بدونه لا يحمل لذة الاحتفال، وغياب طلّته يثير الدهشة ويفتح المجال أمام تنوع الأســـئلة وكثرة الإستفهام، فقد تجرأ على قلبه ووأد عواطفه ثم أعلن الانفصال عن صحبة الحاضرين وإن كـــان ذلـــك الأمـــر مستغر.باً.. ولا شك أنه يطبع علـــى وجـــوه الحاضـــرين أسباباً غير مألوفة .

ومضي الوقت يؤكـــد عـــدم حضـــوره فـــي الوقـــت المناسب... ودفعني الأمل لتسقط أخباره ممن حضر، راجية من الله أن لا يتحقق ظـــن الســـوء ،وأن يكـــون حضـــوره

المفاجأة الجميلة لهذه الأمسية...ولكن الانتظار طـال دون أن يحضر .

وبعد استنفاد جميع الحجج والمعاذير لعدم حضـوره، توقف الترقب عند باقة ورد منتقاةٍ بذوق راق ،تحتجز مكان الصدارة من الحديقة، وكل واحد منا كان يرنو إليها دون أن يعرف مرسلها وعندما قرأت صـاحبة الـدعوة البطاقـة، ارتسمت ملامح الدهشة على وجوه الحاضرين إذ تبين أن حساماً هو صاحب هذه الباقة الجميلة . كانت كلماته التـي كتبت على البطاقة مختصرة، حيث شعر كل واحد منا أنها هدية شخصية له دون غيره.

" شوقي عظيمٌ لكل من حضر هذه الحفلـة، وأملي أن يكون مستقبلكم مُزهرٌ كالورد. "

حسام

ومضت تلك الليلة، ليس كغيرها من ليالي السهر على الكتب والمراجع والتجارب .... مضت وفي الذاكرة صورة جميلة نقشت في صفحة جديدة من حياتي، كانت فاتحة عهد جديد.

ويمضي قطار الزمن، سريعاً أو بطيئاً فالأمر سيان ، فما حزنت لأيام مضت ،بل فرحت لأيام تُطل وفجرها يفوح من ثناياها الأمل، طال عمرها أم قصر، لأن حساب الزمن شيء نسبي، ليس من السهل تثمينه أو معرفة الأهمية التي تكمن في لحظاته . ثم إن جميع محطات عمر الإنسان لا تجتمع إلا على اختلاف يبين طابع كل منها، ويميز نمط الحياة فيها .

فلو أننا نحسب الأيام على أصابع أيدينا كما يفعل الأطفال، لوقف الزمن وكرهنا كثيراً مما نحب ... فهذا اليوم صورة طبق الأصل من الأمس، والغد مترقب قدومه بفارغ الصبر، أيحمل في طياته جديداً يكسر قاعدة الروتين الممل، الذي يكبلنا بأغلال واهية لا قيمة لها ؟ أم ......؟!

إلا أن الخوف من الغيب يحجب عن أعيننـــا وضـــوح الرؤيا، فنعيش في عراك غير متكافئ مع أنفسنا . نود هدم تلك الحدود الوهمية التي تفصل بين الحاضر والمســتقبل، وفي القلوب آمال تحذر الحاضر من أخطـــاء الماضـــي . فنخطط ونرسم معالم الطريق و... و... ولا نخطـــو إلـــى الأمام خطوة واحدة لتحطيم تلك السدود المتعالية كـــالوهم . فهي أغلال باقية ما بقيت نفوسنا تقف على هامش الخوف، تتوقع رهبة التجربة قبل التمتع بلذة الفوز.

وتوقف القطار في محطة مزدانةٍ بباقـــات الـــورود، لا يدخلها حزين، ولا يطرق أبوابها تعيس، ولا مكـــان فيهـــا لبائسٍ...فهي جنة للسعداء، ومقام دائم للأحباب، وعش هناء لا يعكر ساكنيه حاسد أو عزول...

لن أجعلك يا صديقي القارئ تفكر كثيراً بهذه المحطة، ولن أُتيح لك فرصةً تسرح بخيالك بعيداً، وتظن بي الظنون، فيتعكر صفوك فتحزن، أو يصيبك شيء من الإحباط بسببي

وقد ألف كل منا صاحبه منذ بداية هذه الرحلة، بل تعـــال معي كي نتعرف على صاحب هذه المحطة .

إنه بلا مقدمات – الدكتور بسام، فأنت تـــذكره، ومـــا أظنك قد نسيت دعوته لي أول مرة في مكتبه، يرسل كـــل منا نظراته اختلاساً وقد أحمرّ وجه كل منا، كأننا غرقنـــا في الإثم قبل أن نُقبل عليه وتحملنا خطايا العالم بأكمله قبل أن نقترف واحدةً منها .

فأيقنت يومها أن ذلك اللقاء يحمل طابعاً غرامياً إذ إن الوجوم الذي ساد الغرفة وانعقاد اللسان، واحمرار الوجه... جعلني أخرج من مكتبه وقد أدركت بشعورالمرءة أن هذا الرجل اختارني دون بنات الكلية...

واكتشفت في هذه المحطة، أنه صاحب البشرى التـــي أسعدت والدتي، وأنه صاحب المكالمـــة المجهولـــة التـــي حيرتني وأسعدتني ...

لقد كان ينتظر ساعة التخرج بفارغ الصبر . ليقــتحم البيت بحصانه الأبيض ً، عفواً بعربته الفاخرة ــ ويردفنـــي خلفه كي نبدأ أياماً هي أزهى أيام العمر.

تمت

موسى فهد شنك

moussash@gmail.com

هاتف نقال: ٠٧٩٧١١٦٥٤٨

قصص للمؤلف ــ تحت الطبع

١. لا وقت للعتاب قصة طويلة

٢. لا تأخذنِ بعاري قصة طويلة

٣. أطياف حائرة قصة طويلة

٤. قريتي هي العنوان قصة طويلة

٥. أيام عمّانية مجموعة قصص

٦. زوجة لرجل آخر قصة طويلة

٧. أولى خطوات الكفاح قصة الصراع مع االعدو

٨. في القلب للذكرى مكان ديوان شعر